جامعة الأزهر
كلية أصول الدين والدعوة
بالمنوفية

تفسير
سورة يوسف

الأستاذ الدكتور
شحات حسيب الفيومي
أستاذ التفسير بالكلية
ووكيل الكلية

٢٠٠٣



مطبعة الشمس – شبين الكوم

المقدمة

لقد صدَّر الله سورة «يُوسُف» عليه السلام بقوله ﷻ :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

ولما كانت سورة يُوسُف من السور التى إذا ما شرع المرء فى قراءتها تتوق نفسُه لأن يستمرَّ فى تلاوتها، وأثناء التلاوة تتحرك المشاعرُ والعواطفُ بين غضبٍ من ظلم الإخوة الكبار لأخيهم الصغير ويبلغ الظلم مبلغه حين ألقَوْهُ فى غيابة الجُبِّ فلما لم يمت وأخرجه واردُ السيارة يبيعونه لهم بثمن بخس فيكون الغرباء أرحم بـيُوسُف من إخوته، وينتقل إلى قصر العزيز وكانت ثمرة العفة أن يُرمَى به فى غياهب السجن .

ثم يتحول الغضب إلى التعجب من قدرة الله فى مراحلِ خروجه من السجن ووصوله إلى سدَّة الحكم حتى يسود العدل فى ظروف ألمَّت بالناس فى كل مكان، ويأتى الناس إلى الكنانة فهى سَلَّةُ الخبز للناس فى وقتها، فلو جاع الناس لأطعمتهم مصر ولو جاعت لا يستطيع الناس أن يطعموها.

وتنتهى السورة بهدوء العواطف وسكون المشاعر بما آل إليه الأمر من مقام يُوسُف ومقام إخوته.

وهذه إطلالة على السورة أرجو الله أن يستفيد بها طلاب العلم.

المؤلف

مفهوم القصص القرآنى

يقول ابن منظور: (والقَصَص القرآنى: الخبر المقصوص بالفتح - أى بفتح القاف والصاد- وُضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه .

والقصص: بكسر القاف: جمع القصة التى تكتب)[1] وفعله قصَّ ، تقول (قصصت الخبر قصًا من باب «قتل» حدَّثت به على وجهه والاسم القَصَص بفتحتين، وقصصت الأثر تتبعته)[2] فكأن القاصَّ حين يقصُّ يتتبع آثار الخبر ويكشف غامضه ويُظهر ما خفى منه.

قال تعالى ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[3] ، وقال تعالى ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [4]

- **تعريف القصة:**

هى الخبر المقصوص بأسلوب محبوك بالحبكة الفنية. مشتمل على العقد المحلولة وغير المحلولة. وجمع القصة: قِصص - بكسر القاف.

---

(١) لسان العرب جـ ٥ صـ ٣٦٥٠.
(٢) المصباح المنير صـ ٥٠٥.
(٣) سورة القصص آية ١١.
(٤) سورة الكهف آية ٦٤.

● الفرق بين القصص القرآنى والقصص البشرى:

شتان بين الثرى والثريا وبين الترب والتبر فلا تقوم مقارنة بين القصص القرآنى وبين القصص البشرى، ولا يوزن كلام الله بكلام البشر بل هناك تناقض فى القصص البشرى وهذه هى الفروق بين القصص القرآنى و البشرى:-

أولاً: القصص القرآنى نزل من عند الله تعالى ونزل به رسول السماء إلى رسول البشر، أما القصص البشرى فمن وحى العقل البشرى.

ثانياً: القصص القرآنى قصص واقعى وقعت جميع أحداثه حتى من قبل وجود البشرية. أما القصص البشرى فمصدره الخيال البشرى وكثير من القصاص يملكون قريحة تجيد السباحة فى الخيال وتتقن الغوص فى أعماقه ويظهر هذا فى حبك قصصهم فمعظمه ليس له جذور فى عالم الواقع.

ثالثاً: القصص البشرى بعضه يدور حول العلاقة بين الرجل والمرأة من حب وبغض وغزل وإعجاب وجنس، ووصال وهجر وتبدو فلسفة الخيال عند الحديث عن تلك الأمور وفى سياق هذا القصص تزدحم فقراته وجمله بالألفاظ وقد يصف القاص جسد المرأة ويصورها ويصور حركتها العارية باللغة الباعثة على تحريك الساكن فيكون لهذا أثره على المرأة فى أنوثتها وعلى الرجل فى رجولته، وقد ينشأ تعقيد فى الشهوات يقابله تعقيد فى الطبع وكذب فى الحقيقة ينشأ عنه كذب فى الخلق وأنه صَرْفٌ للرجل وللمرأة إلى حياة الأحلام والأمانى والطيش، وقد يعتاد قارئ هذا القصص عادات تفسد عاطفته. أما القصص القرآنى

فيهدف إلى العفة عند الحديث عن علاقة الرجل بالمرأة ويحث على التخلق بها. وتبدو ألفاظه مستورة تزينها الكناية والتعريض والألفاظ التى لا تثير ساكناً ولا تحرك شهوة.

رابعاً: يتجه بعض الكتاب إلى قصص ميدانه الجريمة والرذيلة ومحور الأساليب فى هذا الميدان تبرز فيه الطرق التى اتبعها المجرم فى جريمته وتظهر فيه السبل التى سلكها فى إخفاء معالمها حتى لا يقبض عليه ويعاقب ويبالغ الكاتبون فى ذلك فيتركون فى أنفس القراء هواجس وخواطر تدفعهم إلى ارتكاب بعض الجرائم ويجرأ عليها من لديه الميول إلى ارتكابها.

أما القصص القرآنى فإنه يسوق الأهداف السامية والخصال الكريمة والخلال النبيلة فعن طريقها يجتنب القارئ أضدادها، فبذلك يُوصد رتاج إيقاظ الدوافع العدوانية عند الناس.

خامساً: القصص القرآنى نبع للغة العربية فقهها ونحوها وصرفها وبلاغتها، فمن قرأ القصص القرآنى نهل من معارفه المختلفة وأضاف علوماً إلى علمه. بخلاف من قرأ القصص البشرى واكتفى به فيكون فقيراً فى لغته.

سادساً: القصص القرآنى يتناول أخبار الأمم السابقة وأحوالهم مع رسلهم وهلاك من صدف عن الرسل. فهو يطلع القارئ على التاريخ الغابر وذلك فى صدق ودقة فالله هو الذى يقص. ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾[1]، ويعجز البشر عن هذا.

---

(١) سورة النساء آية ٨٧.

سابعاً: قارئ القصص يثاب عليه فإنه ينال على كل حرف قرأه حسنة والحسنة بعشر أمثالها. قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرف. ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» [1]، فالقصص القرآنى يَخرج القارئ منه بأسهم ربح مختلفة. منها:-

١- الثواب الذى يزفه إلى الجنان يوم القيامة.

٢- حديث الإنسان مع خالقه فإن من قرأه فهو يتحدث مع الله ﷻ وما أعظم هذا.

٣- القصص القرآنى يفيض هدياً ورشداً فقارئة يطبق نصوصه ويستضىء بهديه وإرشاده، بخلاف القصص البشرى فإنه على النقيض من هذا وفيه إضاعة للوقت ويحاسب المرء على الفراغ الذى عاشه مع القصص البشرى.

قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ» [2]، وحين تنساق النفس وراء هواها فى قراءة القصص البشرى يسهل على إبليس اقتحامها والزج بها فى أوحال الرذائل فيأثم القارئ بعد أن يفتح إبليس أمامها سبلها. أما قارئ القصص القرآنى فيصعب على إبليس أن ينال منه فهو مع الله.

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) صحيح البخارى.

• معنى كلمة «يوسف»:

كلمة يوسف كلمة أعجمية وهى ممنوعة من الصرف أى لا يلحق آخرها التنوين والتنوين نون ساكنة ينطق بها فى آخر الاسم المعرب لا تظهر عند الوقف ولا تكتب وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ويسمى فى الأوساط الغربية "جوزيف".

• إشتقاق كلمة يوسف واللغات فيها:

فى «يوسف» لغات مختلفة أو لهجات متباينة: فيها ضم السين وكسرها وفتحها. وفيها يؤسف بالهمزة وكسر السين، وبها قرأ طلحة بن مصرف ﴿ لقد كان فى يؤسف ﴾.

و قيل هو مشتق من الأسف فيوسِف بكسر السين يُفْعِل – بضم الياء وسكون الفاء وكسر العين – من أسف يوسف بكسر السين إذا أحزن وأهم وأغضب لأنه آسف آباه بفراقه ويوسف بفتح السين لأن إخوته حزنوه بفراقه أبيه. وقيل أصله يأسف بفتح الياء والسين يفعل لأنه أسيف بفتح الهمزة وكسر السين فى الغربة[1].

وفى بعض الآثار: لما أخرج الله الذرية من ظهر آدم وعرض عليه أمثال الذر أراه شخصاً مهيباً من الرجال على وجهه بهجة الجمال قد توج بتاج الوقار وهو مرتد برداء الكرامة مؤتزر بإزار الشرف عليه قميص البهاء وفى يديه قضيب

---

(١) انظر "بصائر ذوى التمييز" ١٨٥/٢.

الملك وعلى يمينه سبعون ألف ملك وعلى يساره هكذا وخلفه أمم الأنبياء لهم زجل[1] بالتسبيح. فقال آدم يا رب من هذا الذى أبحت له بحبوبة الكرامة وأنزلته هذه الدرجة العالية ؟ قال الله تعالى: هذا ابنك المحسود من إخوته يا آدم، إنحله وسَمِّه فنحله ثلثى جمال أولاده وضمه إلى صدره وقبَّل ما بين عينيه وقال: يا بنى لا تأسف فأنت يوسف فأولَ من سماه بهذا الاسم آدم.

وقيل إن يوسف ورث الجمال من إسحاق وإسحاق ورثه من أمه سارة وسارة ورثت من أمها. وقال: كعب قسم الجمال عشرة أجزاء تسعة منها ليوسف وواحد لجميع أولاد آدم. وقال النبى ﷺ «رأيت يوسف ليلةَ أسرى بى فى السماء الرابعة» فقيل: كيف رأيته يا رسول الله؟ فقال: كالقمر ليلة البدر» وقال: أُعْطِيَ يوسف وأمه شطر الحسن. وكان يوسف عليه السلام حسن الوجه. جميل الخلقة، وصفه الرسول ﷺ فى ليلة الإسراء.

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك (ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صلى الله عليه وسلم، وَقَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ) [2].

يقول السهيلى فى تعليقه على حسن يوسف (أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام لأن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه فكان فى

(١) الزجل: الصوت الرفيع العالى.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووى.

غاية نهايات الحسن البشرى ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه و يوسف كان على النصف من حسن آدم ولم يكن بينهما أحسن منهما كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام.

قال ابن مسعود: وكان وجه يوسف مثل البرق وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه. وقال غيره كان فى الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس) [1]

• نعوت يوسف عليه السلام:

لقد سُمِّيَ بيوسف بيد أن هناك نعوتاً نعت بها يوسف وهذه النعوت وردت فى آيات السورة التى تسمت باسمه. وهذه النعوت هى: -

المجتبى: قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾.

المعلـــم: اسم مفعول وهو من قوله تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾.

الغــلام: وهو من قوله تعالى ﴿ يَا بُشْرَى هَٰذَا غُلَامٌ ﴾.

المكرم: وهو من قوله تعالى ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾.

النافـع: وهو من قوله تعالى: ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾.

الولـــد: وهو من قوله تعالى: ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾.

المُخْلَص: اسم مفعول ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

المحسن: اسم فاعل من الفعل الرباعى أحسن ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

والمحسن: إما أنه أحسن أقواله أو أنه من الإحسان الذى سأل عنه

---

(١) البداية والنهاية جـ ١ ص٢٠٥.

جبريل فى حديث ابن عمر «أن تعبد الله كأنك تـراه فـإن لم تكـن تـراه فإنه يراك»[1].

الفـــتى: وهو من قوله تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾.

الملـــــك: بفتح الميم واللام ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

المستعصـم: إسم فاعل من الفعل الرباعى ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾.

الصـديــق: وهو من قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾.

مستخلَص: اسم مفعول وهو من قوله تعالى: ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

حفيظ عليم: وهو من قوله تعالى ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

ممكَّـــــن: اسم مفعول ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

عزيـــــز: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾.

الرســول: ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2].

- **الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى قصة يوسف:**

يوسف: هو نبى الله يوسـف بـن يعقـوب بـن إسحاق بـن إبـراهيم عليـهم السلام، عن أبى هريرة قال: «قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قـال: أتقـاهم، قالوا: ليس عن هـذا نسـألك، قـال: فيوسـف نبـى الله بـن نبـى الله بـن نبـى الله ابن خليل الله. قالوا ليس عن هـذا نسـألك. قـال: فعـن معـادن العـرب تسـألونى. خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»[3].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم.
(٢) سورة غافر آية ٣٤.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى.

يعقوب أو إسرائيل:

هـو والـد يوسـف واسمـه إسـرائيل الـذى ينتسـب إليـه بنـوا إسـرائيل وسمى يعقوب لأن أمه ولدته مع أخيـه العـيص وكـان العـيص هـو البكـر ونـزل قبـل يعقـوب بيـد أن يعقـوب خـرج وهـو آخـذ بعقـب أخيـه فسـمى يعقـوب. وأبوه إسحاق بن إبـراهيم. وتـزوج يعقـوب مـن ابنتـى خالـه وهمـا: "ليـا" وهـى الكبرى، و"راحيل" وهى الصغرى.

قالوا: (فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان اسم الكـبرى "ليا" واسم الصغرى "راحيل"، وكانت أحسنهما وأجملها فأجابه إلى ذلـك بشـرط أن يرعى على غنمه سبع سنين فلما مضت المـدة علـى خالـه "لابـان" صنـع طعامـاً وجمع الناس عليه وزف إليه ليلاً ابنتـه الكـبرى "ليـا" وكانـت ضـعيفة العيـنين قبيحة المنظر. فلما أصبح يعقوب إذا هى "ليا" فقال لخاله لم غدرت بى وأنت إنما خطبت إليك راحيل. فقال: إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ثم نسخ فى شريعة التوراة) [1].

إخـــوة يوسف:

لقد تزوج يعقوب من ابنتى خالـه لابـان ووهـب "لابـان" لكـل واحـدة مـن ابنتيه جارية فوهب لـ "ليا" جارية اسمها "زلفى" ووهـب لــ "راحيـل" جاريـة اسمها "بلهى".

---

(١) البداية والنهاية جـ ١ ص١٩٤ و ١٩٥.

و جبر الله تعالى ضعف "ليا" بأن وهب لها أولاداً فكان أول من ولدت ليعقوب "روبيل" ثم "شمعون" ثم "لاوى" ثم "يهوذا". فغارت عند ذلك "راحيل" وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها "بلهى" فوطئها فحملت وولدت له غلاماً سمته "دان" وحملت وولدت غلاماً آخر سمته "نيفتالى" فعمدت عند ذلك "ليا" فوهبت جاريتها "زلفى" من يعقوب عليه السلام فولدت له "جاد" و"أشير" غلامين ذكرين ثم حملت "ليا" أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته "إيساخر" ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته "زايلون" ثم حلمت وولدت بنتاً سمتها "دينا" فصار لها سبعة من يعقوب. ثم دعت الله تعالى "راحيل" وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها فحملت من نبى الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته "يوسف" كل هذا وهم مقيمون بأرض حران وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين[1].

و بعد انتقال يعقوب من أرض حران من عند خاله لابان إلى أرض أبيه وقومه حملت "راحيل" وولدت "بنيامين" إلا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت عقيبه فدفنها يعقوب فى أفراث وهى بيت لحم وصنع يعقوب على قبرها حجراً وهى الحجارة المعروفة بقبر "راحيل" إلى اليوم.

وكان أولاد يعقوب الذكور اثنى عشر رجلاً فمن "ليا" "روبيل" و"شمعون" و"لاوى" و"يهوذا" و"إيساخر" و"زايلون". ومن "راحيل" "يوسف" و"بنيامين". ومن "أَمَة راحيل" "دان" و"نيفتالى". ومن "أَمَة ليا" "جاد" و"أشير".

---

(١) المرجع السابق ص١٩٥.

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم ثم مرض إسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة، ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها[١].

عزيز مصر:

وهو الوزير يقول ابن إسحاق: (واسمه اطفير[٢] بن روحيب، قال – أى ابن إسحاق – وكان ملك مصر يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق)[٣].

قال فيه عبد الله بن مسعود: «أفرس الناس ثلاثة – أبو بكر حين تفرس فى عمر وصاحب يوسف حين قال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ وصاحبة موسى حين قالت ﴿يا أبت استأجرة إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ »[٤].

امرأة العزيز:

يقول ابن إسحاق (واسم امرأة العزيز راعيل بنت راعييل. وقال غيره كان اسمها زليخا والظاهر أنه لقبها)[٥] وهى بنت أخت الملك.

الرجل الذى باعه بمصر:

هو مالك بن ذعر بن نويب بن عفقاء[٦].

---

(١) المرجع السابق ص١٩٧.
(٢) فى بعض النسخ قطفير.
(٣) المرجع السابق ص٢٠٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ٦ ص٢٣٩.
(٥) المرجع السابق.
(٦) انظر المرجع السابق.

• محن ومنح يوسف:

لقد ابتلى يوسف بمحن فصبر عليها وخرج منها منتصراً مأجوراً عليها في دنياه وفى أخراه وهذه المحن هى:-

١- ابتلى بفراق أبيه فتفضل الله عليه بلقائه ورفع أبويه على العرش ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.
٢- ابتلى بغلظة الإخوة ومحاولتهم قتله وإلقائه فى الجب فكافأه الله على ذلك بمسرة ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا﴾.
٣- ابتلى بالوحشة فى بطن الجب وجوزى وهو فيه بوحى الله له ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.
٤- ابتلى بالرق بيع كالسلعة فكافأه الله بالتمكين فى الأرض.
٥- ابتلى بمراودة امرأة العزيز وتغليقها الأبواب ودعوته لها وألصقت به التهمة فكافأه الله بالنجاة بشهادة فرد من أهلها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.
٦- ابتلى بحديث نسوة المدينة رغم أنهن برّأنه فكافأه الله باعترافهن ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾.
٧- ابتلى بالخوف من الوقوع فى المعصية أمام موجات الإغراء المتتالية من دعوة امرأة العزيز له فدعا الله ﷻ ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فكافأه الله ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء﴾.
٨- ابتلى بالسجن وذلته فكافأه الله عليه بالتمكين فى الأرض والعزة. فقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ .

٩- ابتلى بادعاء امرأة العزيز بأنه هو الذى أراد بها السوء ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فكافأه الله على هذه المحنة بأن أظهر الحق على لسانها الذى اتهمته فقالت ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

١٠- ابتلى بالمال والملك واتساع الدنيا وأبعد عنه ضرها دعا ربه ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ ﴾ .

الفرق بين قصة يوسف فى القرآن الكريم و فى العهد العتيق [1]

• رؤيا يوسف:

ما جاء فى العهد العتيق:

(ورأى يوسف حلماً فأخبر إخوته به فازدادوا كراهية له. قال لهم اسمعوا هذا الحلم الذى رأيته، رأيت كأنا نحزم حزماً فى الحقل فإذا حزمتى وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزمكم وسجدت لحزمتى. فقال له إخوته لعلك تملك علينا أو تتسلط علينا وازدادوا أيضاً حنقاً عليه لأجل أحلامه وكلامه. ورأى أيضاً

(١) النصوص الآتية من الكتاب المقدس سفر التكوين من الفصل السابع و الثلاثين إلى آخر الفصل الخمسين من ص٦٧ إلى ص٩٣.

حلماً آخر فقصه على إخوته وقال رأيت حلماً أيضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لى.

و إذ قصه على أبيه وإخوته زجره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذى رأيته أترانى نجئ أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته وكان أبوه يحفظ هذا الكلام. ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم) [1].

ما جاء فى القرآن الكريم: قال تعالى :

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾
قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞﴾

شتان بين النص فى العهد العتيق وبين نص القرآن المعجز، فلقد ذكر العهد العتيق رؤيا حزم الحطب والقرآن لم يسقها بل ساق الرؤيا الصحيحة التى بلغت شأواً بعيداً فى العظمة حيث الشمس والقمر وا لكواكب الأخرى سجدت

---

(١) آية ٧ إلى ١٣.

ليوسف عليه السلام وكعادة القرآن فى الرقة وانتقاء الألفاظ الدالة على المعانى فلقد خالف القرآن العهد العتيق حيث ساق مقالة يعقوب فى نهى يوسف عن إخبار إخوته برؤياه فقال «فلما قصَّه على أبيه وإخوته زجره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذى رأيته أترانا نجئ أنا وأمك وإخوتك فنسجد لك إلى الأرض» ، لقد أتى القرآن بالألفاظ التى تنبئ عن الرقة المتبادلة بين يوسف الصبى وبين أبيه يعقوب قال الصبى ﴿ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

و قال الله عن يعقوب ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ . فالتصغير فى قوله يا بنى للإشفاق وهذا ينبئ عن حس يعقوب المرهف، وهذا مخالف لنص العهد العتيق وكأن يعقوب أدرك من رؤيا يوسف أن ابنه سينال علماً من الله بتأويل الأحاديث والرؤى ، قال له ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ﴾ .

و تأويله لرؤياه وهى الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر.

و خالف القرآن العهد العتيق فى النص السابق حيث ورد آنفاً أن الذى فسر رؤيا يوسف هو يعقوب (وقال له ما هذا الحلم الذى رأيته أترانا نجئ أنا وأمك فنسجد لك على الأرض). والقرآن ساق نصاً يخالف ذلك وأن الذى أول رؤيا يوسف هو يوسف نفسه. قال تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [1].

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٠.

• خروج يوسف للرعى و المؤامرة عليه:

ما جاء فى العهد العتيق:

(فقال إسرائيل ليوسف هو ذا إخوتك يرعون عند شكيم هلم ابعثك إليهم ها أنذا. فقال له امض فتفقد سلامة إخوتك وسلامة الغنم وائتنى بالخبر وأرسله من وادى حبرون فأتى شكيم. فصادفه رجل هو تائه فسأله الرجل قائلاً ماتطلب. قال أطلب إخوتى أخبرنى أين يرعون. فقال الرجل رحلوا من ها هنا وقد سمعتهم يقولون نمضى إلى دوتائين فمضى يوسف فى أثر إخوته فوجدهم فى دوتائين فلما رأوه عن بُعد قبل أن يقرب منهم ائتمروا عليه ليقتلوه. فقال بعضهم لبعض ها هو صاحب الأحلام مقبل. والآن تعالوا نقتله ونطرحه فى بعض الآبار ونقول إن وحشاً ضارياً افترسه ونرى ما يكون من أحلامه.

فسمع رأُوبين فخلصه من أيديهم وقال لا نقتله. وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دمه اطرحوه فى هذه البئر التى فى البرية ولا تمدوا له يداً لكى يخلصه من أيديهم ويرده إلى أبيه.

فلما جاء يوسف إخوته نزعوا عنه قميصه، القميص الموشى الذى عليه وأخذوه وطرحوه فى البئر التى فى البرية.

ثم جلسوا يأكلون و رفعوا عيونهم ونظروا فإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد محملة بالتوابل بلساناً ولاذنا وهم سائرون لينزلوا إلى مصر.

فقال يهوذا لإخوته ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفى دمه. تعالوا نبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته.

فمر قوم مدينيون تجار فجذبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر.

و رجع رأوبين إلى البئر فإذا يوسف ليس فى البئر فمزق ثيابه. ورجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أمضى. فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص فى الدم. وبعثوا بالقميص الموشى فأنفذوه إلى أبيهم وقالوا وجدنا هذا أثبته أقميص ابنك هو أم لا. فأثبته وقال قميص ابنى وحش ضار أكله افترس يوسف افتراساً.

ومزق يعقوب ثيابه وشد مسحاً على حقوقه وناح على ابنه أياماً كثيرة. وقام جميع بنيه وبناته فأبى أن يتعزى وقال إنى أنزل إلى ابنى نائماً إلى الجحيم وبكى عليه أبوه. وباعه المدينيون فى مصر لفوطيفار خصِىِّ فرعون رئيس الشرط)[١] .

ما جاء فى القرآن الكريم: قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ

(١) الآية ١٤ إلى ٣٦ .

فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾
فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ
وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ
وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ
وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ
دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

ما تميزت به الآيات عن العهد العتيق:

أولاً: أن إخوة يوسف هم الذين طلبوا من أبيهم أن يصحبهم يوسف في الخروج للرعى ليدبروا مؤامرتهم.

قال تعالى ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

أما العهد العتيق فإن يعقوب هو الذى أرسله (فقال إسرائيل ليوسف هو ذا إخوتك يرعون عند شكيم هلم أبعثك إليهم قال ها أنذا).

وما جاء فى القرآن الكريم هو الواقع لأن المتآمرين هم الذين حاوروا أباهم لإخراجه وزينوا له الرحلة فبددوا خوفه قالوا ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾. والرتعة السعة فى تناول الفواكه ويلعب بالركض والجرى والصيد.

ثانياً: أظهرت الآيات القرآنية ما أبداه يعقوب من خوف على ابنه يوسف فقال ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾: لقد دخل المتآمرون من أبناء يعقوب عليه السلام من الباب الذى خاف منه وهو إعلانه أن يفترسه الذئب فكان منفذاً لمحو آثار جريمتهم.

ثالثاً: أوردت الآيات القرآنية شيئاً خاصاً بالله تعالى ويوسف عليه السلام وهو أنهم حينما أجمعوا أمرهم لإلقائه فى البئر وواجه يوسف عشرة أشداء وعجز عن مواجهتهم واقترب الموت منه وفى هذه اللحظات اليائسة يلقى الله فى روعه أنه ناج وأنه سيعيش حتى يواجه إخوته ويذكرهم بهذا الموقف الشنيع وهم لا يشعرون بأن الذى يواجههم هو يوسف الذى تركوه فى غيابة الجب.

- **دخول يوسف أرض مصر:**

ما جاء فى العهد العتيق:

(وأما يوسف فأنزل إلى مصر فاشتراه فوطيفار خص فرعون رئيس الشرط جل مصرى من أيدى الإسماعيلين الذين نزلوا به إلى هناك. وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً وأقام ببيت مولاه المصرى، رأى مولاه أن الرب معه وأن جميع ما يعمله ينجحه الرب في يده، فنال يوسف حظوة فى عينيه وخدمه فأقامه على بيته وجميع ما كان له جعله فى يده، وكان منذ أقامه على بيته وجميع ما هو له أن الرب بارك بيت المصرى بسبب يوسف وكانت بركة الرب على جميع ما هو له فى البيت وفى الحقل، فترك جميع ما كان له فى يد يوسف ولم يكن يعرف معه شيئاً إلا الخبز الذى كان يأكله).

ما جاء فى القرآن الكريم: قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أعطت الآيات القرآنية السابقة معان أعمق فى عبارات موجزة منها:

١- أن محنة يوسف قد انتهت بسلام وأن المطاف قد انتهى به إلى مكان آمن وأنه سيعيش فى قصر منيف ولا غرو فالذى اشتراه هو عزيز مصر وهو كبير وزرائها.

٢- منزلة يوسف لدى عزيز مصر — لقد توسم العزيز الخير فى يوسف فالخير يعرف فى الوجوه الصباح ولا سيما حين تصاحبها السجايا الملاح فلقد أوصى العزيز امرأته خيراً. قال لها ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ فالمثوى مكان الثوى والمبيت والإقامة والمقصود بإكرام مثواه إكرامه وفى التعبير القرآنى مبالغة فى الإكرام فكأن الإكرام فاض على يوسف حتى شمل مكان إقامته، وبعد أن أوصى العزيز زوجته بيوسف كشف لها عما يتوسمه فيه من خير وما يتطلع إليه فيه من أمل. ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ فلقد عقد النية على تبنى يوسف. وهذا يدل على أن العزيز لم ينجب أولاداً.

٣- يخبر الله عز وجل بأنه مثل إنجائه من غدر إخوته وعطف العزيز عليه مكن له فى أرض مصر يتصرف فيها بأمره ونهيه ويعلمه الله تأويل الأحاديث، ولقد منَّ الله على يوسف بنعمة الإنقاذ من جحود إخوته وسخر له عزيز مصر فأقام فى قصره وعلمه تأويل الأحاديث ولقد فعل الله ذلك لأنه القادر الغالب على أمره، أي غالب على أمر يوسف فلم يكله إلى غيره، فقد أراد به إخوته ما أرادوا ولم يقع إلا ما أراده ودبره.

● مراودة امرأة العزيز ليوسف:

ما جاء فى العهد العتيق:

(وكان يوسف حسن الهيئة وجميل المنظر، وكان بعد هذه الأمور أن امرأة العزيز مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت ضاجعنى، فأبى وقال لامرأة مولاه

هو ذا مولاى لا يعرف معى شيئاً مما فى البيت وجميع ما هو له قد جعله فى يدى وليس فى هذا البيت شئ فوق يدى ولم يمسك عنى شيئاً غيرك لأنك زوجته فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطأ إلى الله.

وكلمته يوماً بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها. فاتفق فى بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن فى البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه قائلة ضاجعنى فترك رداءه بيدها وهرب خارجاً. صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبرانى ليتلاعب بنا أتانى ليضاجعنى فصرخت بصوت عال. لما سمعنى قد رفعت صوتى وصرخت ترك رداءه بجانبى وفر هارباً إلى خارج. ووضع رداءه بجانبها حتى قدم مولاه إلى بيته. فكلمته بمثل هذا الكلام وقالت أتانى العبد العبرانى الذى جئتنا به ليتلاعب بى. وكان عندما رفعت صوتى وصرخت إنه ترك رداءه بجانبى وهرب خارجاً، فلما سمع مولاه كلام امرأته الذى أخبرته به قائلة كذا صنع بى عبدك استشاط عليه غضباً.

ما جاء فى القرآن الكريم: قال تعالى:

﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا

ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

الله الله الله يشهد كل لفظ من هذه الآيات بأنه من كلام الله وليس من كلام البشر. فكل كلمة جاءت في موضعها لتدل على شئ وتوحى إلى القارئ بشئ تميزت الآيات القرآنية بالعذوبة والحلاوة والإيجاز والجزالة والمعنى الجميل فجادت الآيات بكلماتها الرقيقة وإيقاعها الشجي بالمعاني الآتية:

١- هذه هي المحنة الثانية بعد محنة إخوته بيد أن هذه المحنة في أرض الغربة وفي القصر وهي التي نغصت عليه عيشه وكدرت صفوه. ففي سن المراهقة وفي جو القصر ومن وراء أسواره تولد الرذائل فلا رقيب ولا قانون فهم كوكبة من البشر لا يستظلون بظل القانون أما غيرهم فيكتوى بنيرانه، فقصر العزيز بيئة مترفة لها تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة فصاحبة القصر أحبت يوسف حباً شديداً ملك قلبها وحرك غريزتها

فطفقت تعرض نفسها على يوسف فى ثياب مختلفة ظنت أنها تحرك الساكن لدى يوسف وخرجت عن طبيعة بنى جنسها فهى المطلوبة وليست الطالبة فكانت تحت سقف القصر هى الطالبة وتهالكت على يوسف. عبَّر القرآن عن هذه بقوله ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾، يقول صاحب المصباح المنير: (وراودته على الأمر مراودة ورياداً من باب قاتل: طلبت منه فعله وكأن فى المراودة معنى المخادعة لأن الطالب يتطلف فى طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه) (١).

ولا يخفى علينا أن امرأة العزيز تفننت فى إغراء يوسف وأجادت فهى فى سن تجيد الإغراء فسنها جعلها تمر بتجارب كثيرة ويوسف كان فى سن المراهقة.

يقول الأستاذ سيد قطب: (فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا يقل سنه عن أربعين سنة وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالى الثلاثين ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف فى الخامسة والعشرين أو حواليها وهى السن التى نرجح أن الحادثة وقعت فيها) (٢).ولقد صمد يوسف صمود الجبل الذى يهزأ بالعواصف.

٢- قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾.

---

(١) المصباح المنير ص٢٤٥.

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص١٩٧٩ إلى ١٩٨٠.

لقد أثبتت هذه الآية ليوسف فحولة الرجولة وأن يوسف بشر فيه غريزته بيد أنه سيطر عليها واستعصم بدليل قوله تعالى ﴿لَوْلا أن رَّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وقوله ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

٣- الآيات القرآنية ذكرت أنه جرى منها وجرت وراءه واستبقا الباب وجذبته من قميصه فقطعته ووجدا العزيز بالباب ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ ولما كان هذا دليلاً على براءته بادرته بقولها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤- لم يذكر العهد العتيق الأدلة على براءة يوسف والآيات القرآنية ساقت الأدلة على ذلك منها:

أ- «وشهد شاهد من أهلها».

ب- الدليل فى قد قميصه من دُبُر.

ج- قول العزيز حين لاحت براءة يوسف ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

وسيأتى بمشيئة الله أدلة براءة يوسف بالتفصيل.

إنتشار الخبر خارج القصر:

لم يأت العهد العتيق بانتشار خبر حب امرأة العزيز ليوسف خارج أسوار القصر، فلقد تطاير الخبر فى المدينة أى فى مصر ودخل بيوتها حتى صار حديث السمر بين النساء، ونسوق نص القرآن فقط.

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾

لم يذكر فى العهد العتيق خبر انتشار حب امرأة العزيز ليوسف خارج قصر العزيز. وهذا النص هتف بالأدلة الداحضة على براءة يوسف عليه السلام وهى :-

١- قول نسوة المدينة يدل على براءته ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾.

وفى هذا النص أدلة من وجهين :-

الأول: إعتراف النسوة بأن امرأة العزيز تراود فتاها ولم يتهمن يوسف، فهن يعرفن أنها تراود فتاها ولقد عرفن عفة يوسف فلو لم يكن عفيفاً لبرز فى قول النسوة وهذه شهادة من النسوة.

الثانى: قول النسوة ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذه شهادة ثانية.

٢- قال تعالى ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾. وأدلة هذا النص من وجوه:-

الأول: أنها قدمت عذرها فى مراودتها ليوسف حين أمرت بيوسف بالخروج عليهن فأسر أفئدتهن بجماله حتى نفين عنه البشرية ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ فحين سباهن وقالت النسوة حاش لله ما هذا بشراً إن هو إلا ملك كريم هبط من الملأ الأعلى إلى عالم البشر. فاهتبلت امرأة العزيز تلك الفرصة لتعلن أنها معذورة فى حبها ليوسف فلم تطق النسوة طلعة واحدة ليوسف وهو الذى يقيم معها فى قصرها. ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾.

الثانى: أنها أعلنت أن يوسف امتنع ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى بالغ فى امتناعه وحفظه فكأنه معصوم.

الثالث: إن جذوة الشوق إلى يوسف لم تخمدها أقوال النسوة ولم يطفئها انتشار الخبر فأعلنت للنسوة دون مراعاة لشعور زوجها ، فلقد أنستها لواعج الشوق حقوق بعلها وحقوق مركزه في قومه. فقالت: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾. فأقسمت لئن لم يفعل ما آمره به من معاشرة ومخالطة ومضاجعة ليسجنن وليكوناً من الصاغرين، أي مع الفسقة والسرَّاق كما سرق قلبي وأبق مني.

٣- ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾. وهذا الاعتراف الذاتي من قبل يوسف يبين أنه آثر السجن على دعوة امرأة العزيز إليه وضرع إلى الله أن يصرف عنه كيد النسوة فيكون هناك قوتان ليوسف قوة ذاتية عازمة على البعد عن الجريمة، وقوى خارجية تبدد كيد النسوة حتى لا يتجه يوسف إليهن ويكون من الجاهلين ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٤- لقد أبرزت الآيات براءة يوسف في الآفاق وعرفها القاصي والداني وكعادة القصور وما فيها أرادوا أن يئدوا تلك القضية في دياجير السجن فأودعوا يوسف البرئ في السجن حتى لا يتكلم الناس فيها ويمحوها النسيان.

- **أيام السجن:**

ما جاء في العهد العتيق:

(فأخذ يوسف مولاه وأودعه الحصن حيث كان سجناء الملك مقيدين فكان هناك في الحصن. وكان الرب مع يوسف وأمال إليه رحمته ورزقه حظوة

فى عينَى رئيس الحصن. فجعل رئيس الحصن فى يد يوسف جميع السجناء الذين فى الحصن وجميع ما كانوا يصنعونه هناك كان هناك مدبره.

و لم يكن رئيس الحصن ينظر إلى شئ مما تحت يده الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه) «نهاية الفصل التاسع والثلاثين».

(وكان بعد هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والخباز أجرما إلى سيدهما ملك مصر. فسخط فرعون كلا خصييه رئيس السقاة ورئيس الخبازين. وجعلهما فى حبس بيت رئيس الشرط فى الحصن حيث كان يوسف مسجوناً.

فوكل رئيس الشرط بهما يوسف فاهتم بهما وأقاما مدة فى السجن. فرأيا كلاهما حلماً فى ليلة واحدة كل واحد حلمه لحلم كل تعبير بحبسه ساقى مصر وخبازه المسجونان فى الحصن. فدخل عليهما يوسف بالغداة فإذا هما قلقان. فسأل خصى فرعون الذين معه فى سجن بيت مولاه وقال ما بال وجوهكما مكتئبة اليوم. فقالا له رأينا حلماً وليس لنا من يعبره فقال لهما يوسف أليس أن لله التعابير، قُصَّا علىَّ، فقصَّ رئيسُ السقاة حلمه على يوسف وقال له: رأيت كأن جفنةَ كرم بين يدى، وفى الجفنة ثلاثة أغصان، وكأنى بها أفرغت وأقلعت ونضجت عناقيدها وصارت عنباً، وكان كأس فرعون فى يدى فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون وناولت الكأس لفرعون.

فقال له يوسف هذا تعبيره الثلاثة أغصان هى ثلاثة أيام. بعد ثلاثة أيام يرفع فرعون رأسك ويردك إلى منزلتك وتُناولِ فرعون كأسه كالعادة الأولى حين كنت ساقيه. إنما إذا جاد أمرك فاذكرنى فى نفسك واصطنع إلىَّ رحمة وأجر

ذكرى لديه طرحونى فى هذا الجب من غير أن أفعل شيئاً. ولما رأى رئيس الخبازين أنه قد عبَّر له بخير قال ليوسف رأيت أيضاً فى حلم كأن ثلاث سلال حوارى على رأسى، وفى السلة العليا من جميع طعام فرعون مما يصنعها الخباز والطير تأكل من السلة من فوق رأسى. فأجاب يوسف وقال هذا تعبيره الثلاث السلال هى ثلاثة أيام. بعد ثلاثة أيام ينزع فرعون رأسك عن بدنك ويعلقك على خشبة فتأكل الطير لحمك. فكان فى اليوم الثالث يوم مولد فرعون أنه صنع مأدبة لكل عبيده فرفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بيد عبيده. فرد رئيس السقاة إلى سقايته فناول فرعون الكأس. وأما رئيس الخبازين فعلقه على حسب تعبير يوسف لهما. ونسى رئيس السقاة يوسف ولم يذكره) نهاية الفصل الأربعين.

ما جاء فى القرآن الكريم : قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى

ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

لقد فاقت الآيات القرآنية آيات العهد العتيق فى الوجازة ورصانة العبارة والمعانى الجياشة. وأتت بمعان لم يأت بها العهد العتيق منها :-

١- أن يوسف كان من المحسنين الذين يحسنون أعمال الخير ومحسن إلى أهل السجن.

٢- أن يوسف رغم أنه عاش داخل القصر سنين إلا أن ملتهم لم تجد سبيلاً إلى قلبه فهم كفرة لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة. ويوسف لم ينسلخ عن ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهم أهل نبوة وفيه تعريض بأنه من بيت النبوة.

٣- ناقش يوسف رفيقى السجن فى العقيدة وانتهى بهم إلى الدين القيم الصحيح ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾.

سورة يوسف[1]

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ ﴾

مناسبة السورة بما قبلها:

لقد سبقتها سورة هود ولقد جمعت سبع قصص للأنبياء وهى من محاسن قصص الأنبياء والمرسلين، وفى نهاية الحديث عنهم قال تعالى ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثم ساق سورة يوسف مشتملة على جميع قصته وعند تلاوتها يتثبت الفؤاد ويستدرج الجنان كما قال عطاء «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها. ولذا قال خالد بن معدان — سورة يوسف وسورة مريم تتفكه بهما أهل الجنة»[2].

---

(١) سورة يوسف مكية وآياتها ١١١ آية.

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص١٩٧.

سبب نزولها:

ساق الزمخشرى سبباً لنزول هذه السورة فقال: «روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لم انتقل يعقوب من الشام إلى مصر»[1].

ولقد ساق السيوطى سبباً آخر غير هذا السبب وهو أن الصحابة هم الذين سألوا الرسول ﷺ ذلك وساق رواية عن ابن عباس.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: «قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزل ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود مثله»[2].

و قال الحافظ ابن كثير «وقد ورد فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير. حدثنا محمد بن سعيد العطار حدثنا عمرو بن محمد أنبأنا خلاد الصفار عن عمرو بن قيس عن عمر عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبى ﷺ القرآن قال: فتلا عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله ﷻ ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾»[3].

المباحث العربية

أولاً: اسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ وهو للبعيد وأتى به دون أن يأتى باسم الإشارة للقريب ليلفت الانتباه إلى بُعد منزلة الآيات فى الفخامة وعلو الشأن.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٣٠٠.

(٢) أسباب النزول ص١٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٢٩٥.

ثانياً: ﴿ آيَاتُ ﴾ جمع آية ولها مدلولات هي بمعنى الدلالة والعلامة والمعجزة والطائفة من السورة القرآنية لها مبدأ ومختتم وهو المراد هنا. والتنكير في آيات للتفخيم والتعظيم.

ثالثاً: ﴿ الْكِتَابِ ﴾ المراد بالكتاب أمران: الأول: إما أنه القرآن كله، الثاني: وإما أنه ما نزل من القرآن حينئذ وتعارف عليه الناس إذ ذاك فهو لم يتم نزوله بعد وقت نزول هذه الآيات، فكما يطلق لفظ القرآن على المجموع الشخصي يطلق على مجموع ما نزل في كل عصر وعلى ضوء ذلك:-

فالأمر الأول: أن المراد جميع القرآن يترتب عليه شبهة وهي أن القرآن لم ينزل كله حينئذ. وتدفع هذه الشبهة بأنه أطلق على جميعه باعتبار تعينه وتحققه في علم الله ﷻ. أو باعتبار أنه مدون في اللوح المحفوظ كله. أو باعتبار أنه أنزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا.

فبهذه الاعتبارات سميت الفاتحة بفاتحة الكتاب وبأم القرآن وذلك في أول عهد النبوة ولم يحصل المجموع الشخصي إذ ذاك ومن جهة أخرى إن كلمة ﴿قُرْآنًا﴾ اسم جنس يقع على بعضه وكله.

﴿ الْمُبِينِ ﴾ من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى وفي إعجازه لا سيما الإخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم. أو بمعنى بيِّن أي المبين لما فيه من الأحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين في الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص - وهذا المعنى للأمر الأول.

ومعنى المبين على الأمر الثانى – وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فإبانته إنباؤه عن قصة يوسف[1].

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فاعل أنزل نا الفاعلين وتعالى الله عن الشريك، بل المنزل هو الله ويكون الفاعل لتعظيم نفسه جل جلاله وعم نواله.والضمير المنصوب وهو الهاء مفعول به يعود على الكتاب. و﴿ قُرْآنًا ﴾ بدل منه أو حالاً و﴿ عَرَبِيًّا ﴾ صفة لـ﴿ قُرْآنًا ﴾. وقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الترجى فى جانب الله ﷻ محال وتفسير «لعل» بما يأتى:-

(١) إما أن تكون للتعليل ويكون المعنى إنا أنزلناه قرآناً عربياً لكى تعقلوا.

(٢) وإما أن يكون الترجى من جانب المخاطبين وليس من جانب الله والمعنى: إنا أنزلناه قرآناً عربياً على رجائكم أن تعقلوا. وعبر بالمضارع فى «تعقلون» للتجدد والحدوث. ومعنى «تعقلون» العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة. عقل ولهذا قال أمير المؤمنين علىٌّ ﷺ : «العقل عقلان.. مطبوع ومسموع.. ولا ينفع مسموع.. إذ لم يك مطبوع.. كما لا ينفع ضوءُ الشمس.. وضوءُ العين ممنوع». وإلى الأول أشار الرسول ﷺ بقوله «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل». و إلى الثانى أشار بقوله «ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدىً أو يرده عن ردى»[2].

---

(١) تفسير أبى السعود جـ ٣ ص٢٥٠.

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٤١ ، ٣٤٢.

وقولـه تعـالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾، ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ نخبرك ونحدثك، فمعنى «قصَّ» تتبع الخبر والأثر فمعنى القصص الأخبار المتتبعة، قال تعالى ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ . و ﴿أَحْسَنَ﴾ صفة لمفعول مطلق تقديره أى نقص عليك قصصاً أحسن القصص.

قوله ﴿ بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ الباء للسببية وما مصدرية واسم الإشارة مفعول به والقرآن بدل منه أو عطف بيان.

قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ هذه الجملة فى محل نصب حال ومعنى ﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ أى لم يخطر ببالك تلك القصة ولم تسمعها قط بل كنت خالى الذهن فيها. وهذا من معجزاته ﷺ حيث يخبر عن المتقدمين والمتأخرين بأحسن تعبير وأبلغ وجه.

قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ، ولقد ورد أن فى القرآن بعض الكلمات وهى ليست عربية. يقول السيوطى بعد أن ساق رأى الأئمة المانعين لوجود كلمات غير عربية فى القرآن ورأى القائلين بوجودها: «وأقوى ما رأيته للوقوع – وهو اختيارى – ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبى ميسرة التابعى الجليل قال: فى القرآن من كل لسان»[1].

وساق السيوطى كثيراً من الكلمات غير العربية أوصلها إلى ما يزيد على مائة كلمة من لغات مختلفة منها ما هو بلغة فارس «كأباريق» و«سندس» وسجيل، ومنها بلغة الحبشة «الجبت» ومعناها الشيطان و«السجل»،

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ٢ ص١٢٦.

ومنها باللغة القبطية «أكواب»، ومنها باللغة السريانية «رهواً» أى سهلاً. و«طور» الجبل. ومنها باللغة القبطية «مزجاة» أى قليلة و«بطائنها» أى ظواهرها. ومنها باللغة العبرانية «اليم» «صلوات» كنائس. ومنها باللغة الرومية «الصراط» إلى غير ذلك من اللغات.

واختلف العلماء هل فى القرآن كلمات غير عربية أم لا؟، ذهب الشافعى وأبو عبيدة وابن جرير والقاضى أبو بكر وابن فارس إلى أنه عربى لم يقع فيه غير عربى واستدلوا بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. وقوله تعالى ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [2]. وقوله تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [3]. وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [4].

ولقد شدد الإمام الشافعى النكير على القائلين بوقوع الكلمات غير العربية فى القرآن وزاد أبو عبيدة من جملته على القائلين وقال: «إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ومن زعم أن كذا بالنبطية فقد أكبر القول»[5].

و قال ابن فارس: «لو كان فيه من لغة غير العرب لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات يعرفونها»[6].

---

(١) سورة يوسف آية ٢.

(٢) سورة الزمر آية ٢٨.

(٣) سورة فصلت آية ٣.

(٤) سورة فصلت آية ٤٤.

(٥) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص١٢٥.

(٦) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص١٢٥

وقال آخرون كل هذه الألفاظ – أى ألفاظ القرآن – عربية صرفة ولكن لغة العرب متسقة جداً ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجلة وقد خفى على ابن عباس معنى فاطر وفاتح. وقال الشافعى فى الرسالة لا يحيط باللغة إلا نبى.

و قال أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك: إنما وجدت هذه اللفاظ فى لغة العرب لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظاً ويجوز أن يكونوا سبقوا إلى هذه الألفاظ.

و ذهب فريق من العلماء إلى وقوع كلمات غير عربية فى القرآن،وهى يسيرة بالنسبة لكلمات القرآن ويسرها لا يخرج القرآن عن عربيته وأما الاستفهام فى قوله ﴿ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ بأن المعنى من السياق أكلام أعجمى ومخاطب عربى.

واستدلوا باتفاق النحاة على أن منع الصرف لبعض الكلمات الواردة فى القرآن للعلمية والعجمة كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويوسف وغير ذلك.

و رد هذا الاستدلال بأن الأعلام ليست محل خلاف فالكلام فى غيرها موجه بأنه إذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس. وساق السيوطى دليلاً نقلياً على الوقوع قد سبق ذكره.

إتجاه معتدل: المذهبان اللذان سبق ذكرهما وهما متقابلان أحدهما ينفى وقوع الألفاظ غير العربية فى القرآن والآخر يهتف بوقوعها والاتجاه الصحيح أن الألفاظ غير العربية والتى وقعت فى القرآن الكريم وردت إلى العرب عن طريق اختلاطهم بأصحاب هذه اللغات فاستخدمها العرب وعربوها بألسنتهم فجرت مجرى العربى الفصيح ووقع بها البيان فحولوها عن ألفاظ العجم فصارت عربية

بالاستعمال ونزل بها القرآن. ومثال ذلك ما نراه في واقعنا الذى نعيشه فلقد وردت إلينا نحن العرب ألفاظ كثيرة من احتكاكنا بالغرب والشرق واستوردنا آلات وأمتعة وردت إلينا بالأسماء التى أطلقها عليها مخترعوها وصانعوها وحفظها الناس أو غير نطقها مجمع اللغة العربية.

فعلى سبيل المثال كلمة «استنسل» تطلق على نوع من الورق يكتب عليه بواسطة آلة. ولقد قال عنه مجمع اللغة العربية «ورق الشمع» إلى غير ذلك من آلاف الكلمات.

و لقد ذهب إلى هذا الاتجاه أبو عبيد القاسم بن سلام «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن العربية: والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء ولكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال: أعجمية فصادق ومال إلى هذا القول ابن الجوزى وآخرون»[1].

فوائد وجود الكلمات المعربة فى القرآن:

ذكر السيوطى رحمه الله بعد أن ساق الدليل على وقوع الألفاظ الأعجمية فى القرآن قال «فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ فى القرآن: -

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص١٢٨ ، ١٢٩.

١- أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شئ فلابد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شئ فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب.

٢- ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم ولم ينزل فيها شئ بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شئ كثير.

و أيضاً فالنبى ﷺ مرسل إلى كل أمة وقد قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [١] فلابد وأن يكون فى الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه.

٣- وقد رأيت الخوبى[٢] ذكر لوقوع المعرَّب فى القرآن فائدة أخرى فقال: إنْ قيل إن «استبرق» ليس بعربى وغير العربى من الألفاظ دون العربى فى الفصاحة والبلاغة فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك. وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة فإن لم يرغبهم بالوعد الجميل ويخوفهم بالعذاب الوبيل لا يكون حثه على وجه الحكمة فالوعد والوعيد نظراً إلى الفصاحة واجب[٣].

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤.

(٢) الخوبى : بضم الخاء و فتح الواو وتشديد الياء مع كسرها . وهو شمس الدين أحمد بن خليل الخوبى الشافعى الطبيب الحكيم و كان صاحباً للفخر الرازى و توفى سنة ٦٣٨هـ.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧.

رؤيا يُوسُفَ فى طفولته

قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

المباحث العربية

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ بمعنى وقت والكلمة منصوبة بفعل محذوف والتقدير «واذكر وقت أن قال يوسف لأبيه». ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. ﴿ يَا أَبتِ ﴾ هذا نداء وحكم المنادى المضاف إلى ياء المتكلم يجوز فيه ست لغات:-

(١) إثبات ياء المتكلم نحو ﴿ يَا عِبَادِى لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [(١)] وهذا على بعض القراءات أما الرسم فى المصحف فالكلمة مجردة عن ياء المتكلم.

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٨.

(٢) حذف ياء المتكلم وإبقاء الكسرة التى قبلها لدلالة حذفها ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾[١].

(٣) ضم الحرف الذى كان مكسوراً لأجل الياء وهى لغة ضعيفة وقرئ ﴿قال ربُّ احكم بالحق﴾[٢] بضم الباء فى «رب».

(٤) إثبات ياء المتكلم مع فتحها قال تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ﴾[٣].

(٥) قلب الكسرة التى قبل الياء المفتوحة فتحة فتقلب الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها قال تعالى ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[٤]. وقال تعالى ﴿يا أسفا على يوسف﴾[٥].

(٦) حذف الألف وإبقاء الفتحة دليلاً عليها. وإذا كان المنادى المضاف إلى ياء المتكلم أبا أو أماً جاء فيه عشر لغات وهى اللغات الست السابقة ولغات أربع أخرى هى:-

أ- إبدال الياء تاء مكسورة وبها قرأ السبعة ما عدا ابن عامر.

ب- إبدالها تاء مفتوحة وبها قرأ ابن عامر.

جـ- يا أبتا: التاء والألف وهى قراءة شاذة.

د- يا أبتى: بالتاء والياء. وهاتان اللغتان الأخيرتان قبيحتان والأخيرة أقبح.

---

(١) سورة الزمر آية ١٦.

(٢) سورة الأنبياء آية ١١٢.

(٣) سورة الزمر آية ٥٣.

(٤) سورة الزمر آية ٥٦..

(٥) سورة يوسف آية ٨٤.

قولـه تعـالى ﴿ إِنِّـي رَأَيْـتُ أَحَـدَ عَشَرَ كَوْكَبًـا وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ رَأَيْـتُهُمْ لِـي سَاجِدِينَ ﴾، ﴿ أَحَدَ عَشَرَ ﴾مبنى علـى فـتح الجـزأين مفعـول أول لرأيت وكوكباً تمييز. ثم ذكر الشمس والقمر معطوفين على أحد عشر وهو من عطف الخاص على العام لبيان فضلهما ومنزلتهما. وتكرير ﴿ رَأَيْتُ ﴾ يحتمل وجهين: -

(١) التوكيد فلما طال الكلام وكان هناك فصل بـالمفعول ومـا عطـف عليـه كـرر الفعل﴿ رَأَيْتُ ﴾ وله شاهد على ذلك فى القـرآن الكـريم ومنـه قولـه تعـالى ﴿أَيَعِـدُكُمْ أَنَّكُـمْ إِذَا مِـتُّمْ وَكُنـتُمْ تُرَابًـا وَعِظَامًـا أَنَّكُـم مُّخْرَجُـونَ﴾[1]. فلقد كرر كلمة «أنكم».

(٢) والثانى أنه ليس بتأكيد وإليه نحا الزمخشرى فإنه قال فإن قلت ما معنـى تكرار رأيتهم قلت ليس بتكرار إنما هو كلام مستأنف علـى تقدير سؤال وقع جواباً له كأن يعقوب عليه السلام قال له عند

قوله تعالى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ كيـف رأيتهـا سائلاً عن حال رؤيتها فقال ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾. قلت: وهذا أظهر[2]. وجعل الضمير المنصوب فى رأيتهم لجمع المذكر لأنه وصفهم ببعض صفات العقـلاء وهـو السجود. ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ إما أنها مفعول ثان عبارة عن التذلل لله وعبادته وهو عـام فى الإنسان والحيوانات والجمادات وذلك ضربان سجود باختيار ولـيس ذلـك إلا للإنسان وبـه يستحق الثواب نحو قوله ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ أى تـذللوا لـه

(١) سورة المؤمنين آية ٣٥.
(٢) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٣٥.

وسجود تسخير وهو للإنسان والحيوانات والنبات وعلى ذلك قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾.

فهذا سجود تسخير وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة وأنها خلق فاعل حكيم[1].

والسجود لله تعالى فى الشرع عبارة عن هيئة مخصوصة وهى وضع الجبهة على الأرض وسجود الكواكب ليوسف كأنه عن إرادة واختيار كسجود العقلاء وعلم أبوه أن هذه الرؤيا إلهام وليست أضغاث أحلام التى تثيرها فى النوم الخواطر والأفكار ولا سيما غلام صغير.

قوله تعالى: ﴿ قالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾. قال يعقوب ليوسف ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ أصل «بنى» بَنَوٌ على زنة فَعَلٌ بفتح أوله وثانيه ثم صغر على سبيل العطف والتحبب فصارت «بُنَيْوٌ» على زنة فُعَيْل بضم أوله وفتح ثانيه وسكون الياء فتكون الياء الساكنة قد سبقت الواو فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء فصارت «بُنَى».

قوله تعالى: ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ لا تتبع آثار تلك الرؤيا وترويها بدقة إلى إخوتك ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ أى فيخدعوك ويمكرون بك. و لقد جزم الفعل «يكيدوا» لوقوعه فى جواب النهى، و﴿ كَيْدًا﴾ يجوز فيه وجهان:

(١) هو مصدر وضع موضع الاسم. فيكون مفعولاً به. وتكون اللام حينئذ فى «لك» بمعنى من أجلك.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٢٢٣ ، ٢٢٤.

(٢) أن يكون مصدراً مفعولاً مطلقاً مؤكداً لعامله.

قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ جملـة لا محـل لهـا مـن الإعراب مستأنفة. والشيطان إما إنه من الفعل شطن ومعناه بَعُدَ فإنه بعيد عن كل خير والنون تكون أصلية. أو أنه من الفعل شاط بمعنى احترق فالنون تكون زائدة.
و معنى الجملة: إن الشيطان ظاهر العداوة بيِّنها لا تفوته فرصة لها فيضيعها.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾.
و المعنى: وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا العظيمـة الدالـة علـى شـرف وعـز وكبرياء. شأن كذلك يجتبيك للأمور العظام. ومعنى الاجتباء الاختيار والاصطفاء والمراد بالتشبيه بيان المضاهاة المتحققة بين الصور المرئيـة فـى عـالم المثـال وبـين ما وقعت هى صوراً وأشباحاً له من الكائنات الظاهرة بحبها فى عالم الشـهادة أى كما سخَّر لك تلك الأجرام العظـام يسـخر لـك وجـوه النـاس ونواصـيهم مـذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان إطاعـة أبويـه وإخوتـه لـه لكنه إنما لم يصرح به حذراً من إذاعته [١].

وقولـه تعـالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.
هذا النص غير داخل فى التشبيه السابق وهو مسـتأنف فكأنـه قيـل وهـو يعلمك ويتم نعمته عليك، ويجوز أن يكـون معطوفـاً علـى الكـلام السـابق، أى يجتبيك ويعلمك من تأويل الأحاديث.

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٤ ، ص٢٥٣.

والمراد بتأويل الأحاديث أمران:

١- إما الرؤيا التى ترى فى النوم وسميت أحاديث لأنها حديث الملك إن كانت صالحة، أو حديث النفس أو حديث الشيطان إن كانت غير ذلك وتأويل الرؤيا على هذا تأويلها وتفسيرها، ولقد ظهر ذلك من يوسف فى السجن عند أول رؤيا صاحبيه وأول رؤيا الملك حين أحجم الملأ من العلماء عن تعبيرها وقالوا أضغاث أحلام.

٢- وإما أن يكون المراد من الأحاديث. كتب الله التى أنزلها على الأنبياء السابقين وسنن الأنبياء وتأويلها تفسير غامضها وبيان ما اشتبه على الناس من مقاصدها وأهدافها فالأحاديث جمع حديث: فيكون كتب الله أحاديث الله. قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [1].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. تمام النعمة أن تصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ووجه تمام النعمة على يوسف وآل يعقوب على هذا الرأى بأن جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكاً ونقلهم إلى الدار الآخرة فجعلهم فى الدرجات العلى فى الجنة. وهذا تمام النعمة. وهذا هو الوجه الأول فى تمام النعمة والوجه الثانى: تمام النعمة أن يخلصه من المحن ومن الرزايا ويكون وجه التشبيه بإبراهيم وإسحاق هو إنعام الله عليهما بتخليصهما من البلايا ويظهر هذا فى إنجاء إبراهيم من النار. ولقد أطلق على الجد لفظ الأب وهذا لا يخفى فى الآية.

---

(١) سورة الزمر آية ٢٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ لا يضع النبوة إلا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية ﴿حَكِيمٌ﴾ يصيب الحق فى القول وفى الفعل: والجملة اشتملت على أساليب بلاغية:

١- التوكيد بإنَّ واسمية الجملة. ٢- صيغتا مبالغة على زنة: فعيل.

لطيفة:

لقد بشر يعقوب يوسف بهذه البشارات فكيف حزن على يوسف وهو يعلم أن الله يجتبيه وكيف يشتبه عليه الأمر وكيف يخبر أبناءه بأنه يخاف عليه الذئب؟

والجواب عن ذلك: أنه أى يعقوب كان قاطعاً بصحة البشارات التى أخبر بها ولده وأن له شأناً عظيماً وكان حزنه على بعد يوسف عنه وعدم معرفته بالمكان الذى انتهى إليه ولو كان يعرف أنه استقر به المطاف فى قصر العزيز لهوَّن على نفسه وهذه هى الطبيعة البشرية ولقد رأينا ذلك مع أم موسى فلقد طمأنها الله تعالى فقال لها ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(١). ومع وحى الله لها ولا شك فى قدرته عز وجل فقال الله عنها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٢).

فرغم أن الله هو الذى خاطبها وطمأنها وبشَّرها وربط على قلبها فكانت فى حال من الخوف الشديد. وهذا حال يعقوب.

---

(١) سورة القصص آية ٧.

(٢) سورة القصص آية ١٠ ، ١١.

أما قوله لأولاده ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ زجرهم عن التهاون فى حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لا يصل إليه. وهذا زيادة فى حفظ الشئ ومراعاته وهو من قبيل ﴿اعقلها وتوكل﴾.

معنى الآيات

اذكر وقت أن قال يوسف لوالده: يا أبت إنى رأيت رؤيا ليست كرؤيا الصبيان وهى الأحلام المختلطة التى لا يتسطيع الأطفال لها تفسيرا إلا أنها انعكاس لحياة ورؤيا يوسف ليست من قبيل رؤى الصبيان بل كانت هادفة أضاءت المستقبل فرأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له. ويبدو أن يعقوب أدرك تأويلها فنهاه أن يقصها على إخوته حتى لا يكيدوا له كيداً فإن الشيطان يوغر صدورهم فهو عدو مبين. ثم قال وكذلك يصطفيك ربك بالنبوة والملك وهذه نعم متصلة بنعم الآخرة كما أتمها على أجدادك إبراهيم وإسحاق.

قصة يوسف أمارات على حقائق كثيرة

قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ

وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

المباحث العربية

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾ اللام واقعة فى جواب قسم محذوف. لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته «آيات» دلائل على نبوة رسول الله ﷺ. ولقد وردت روايات تبين أن بعض اليهود سألوه مع حبر من أحبارهم عن قصة يوسف[1] فذكر لهم تلك القصة فوجدوها مطابقة لما فى التوراة وحينئذ فهى من دلائل نبوة رسول الله ﷺ حيث قص عليهم تلك القصة بأبلغ وجه وأفصح لسان. وأسَرَ بها كل جنان فهى وحى من قبل الرحمن.

ويحتمل أن يكون الله قص على رسوله ﷺ قصة يوسف وظلم إخوته له لما رأى ظلم قومه له. حتى يتأسى به الرسول ﷺ

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٠٥.

فإن كان قومه آذوه فأقرب الناس إلى يوسف بالغوا فى إيذائه وهموا بقتله فصبر وفى النهاية عفا وصفح.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى الوقت وهو منصوب بفعل محذوف تقديره «أذكر وقت قالوا ليوسف» اللام يجوز أن تكون موطئة لقسم محذوف ويجوز أن تكون للابتداء وفى هذا توكيد لما رأوا من زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه وأضاف الأخ ليوسف لأنهما كانا شقيقين.

سر محبة يعقوب ليوسف وأخيه:

لقد كان يوسف وأخوه صغيرين قد ماتت أمهما وهما صغيران فكان قلب يعقوب مولعاً بحبهما لموت أمهما والفطرة مركوزة فى البشر وهى حب الصغير فلقد قيل لابنة الحسن: أى بنيك أحب إليك قالت الصغير حتى يكبر والغائب حتى يقدم والمريض حتى يفيق ولقد عبر عن هذه الفطرة الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيرى فى قصيدته التى بعث بها إلى أولاده وهو فى السجن:

وصغيركم عبد العزيز فإننى ... أطوى لفرقته جوى لم يصغر

ذاك المقدم فى الفؤاد وإن غدا ... كفؤاً لكم فى المنتهى والصغر

إن البنان الخمس أكفاء معاً ... والحلى دون جميعها للخنصر[1]

وقوله تعالى ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبر ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ ولم تحصل

---

(١) أنظر البحر المحيط جـ ٥ ص٢٨٣.

المطابقة بين المبتدأ والخبر لأن الخبر اسم تفضيل مجرد، ولقد تعدى أحب بإلى، قال الصاوى (واعلم أن مادة الحب والبغض إذا بنى أفعل التفضيل منها تعدى للفاعل بإلى وللمفعول باللام أو بفى والآية الكريمة من الأول فإن الأب هو فاعل المحبة) (١).

قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ هذه الجملة فى محل نصب حال. والعصبة كما قال ابن عباس: ما زاد على العشرة وعنه ما بين العشرة إلى الأربعين، وعن قتادة ما فوق العشرة إلى الأربعين، وعن مجاهد من عشرة إلى خمسة عشر، وعن مقاتل عشرة، وعن ابن جبير ستة أو سبعة. وقيل ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل إلى خمسة عشر) (٢).

قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ومعنى الضلال الخطأ أو الهوى أو الجور فى الفعل الخطأ فى أمور الدنيا.

(روى أنه بعد إخباره لأبيه بالرؤيا كان يضمه كل ساعة إلى صدره وكأن قلبه أيقن بالفراق فلا يكاد يصبر عنه) (٣).

قوله تعالى: ﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ هذا قول إخوة يوسف لبعضهم أو أنهم استشاروا بعض أهل الشر فأشاروا عليهم بقتله أو تغريبه أو أنهم افترقوا فرقتين فرقة قالت بقتله وفرقة قالت بتغريبه إلى أرض بعيدة.

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص ١٩٩.

(٢) البحر المحيط جـ ٥ ص٢٨٣.

(٣) البحر المحيط جـ ٥ ص ٢٨٣.

و الطرح هو إلقاء الشئ وإبعاده. وأرضاً منصوب على الظرفية ففيها معنى الإبهام والجهالة. ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ لا يشغل بغيركم ويقبل عليكم. والفعل مجزوم فى جواب الأمر ﴿ اقْتُلُواْ ﴾ وعلامة جزمه حذف حرف العلة.

﴿ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ والفعل معطوف على الفعل المجزوم. والمعنى: «وتكونوا من بعد قتله أو تغريبه أو من بعد يوسف ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم»[1].

قوله تعالى ﴿ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ هذا رأى ثالث انبثق عن عرض الرأيين السابقين وهو أرفق بيوسف من قتله أو تغريبه. وصاحبه هو يهوذا، وهو الذى قال فيما بعد ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي﴾ . وقيل القائل روبيل.

قوله تعالى ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ الغيابة: الشئ المظلم والجب هو البئر التى لم تطمر، أى التى بها ماء، وكان بأرض بيت المقدس وقيل كان بالأردن ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أى يأخذه لقطة بعض الأقوام الذين يسيرون فى الطريق والسيارة جمع سيار، ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ تفريقاً بينه وبين أبيه وجواب الشرط محذوف والتقدير فافعلوا ذلك.

قوله تعالى ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ بدأوا صلتهم بتلطفهم فى طلبهم لإخراجه معهم، فقالوا ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا

(١) الكشاف جـ٢ ص٣٠٥.

عَلَى يُوسُفَ ﴾ والاستفهام صحبه معنى التعجب ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى وإنا لعاطفون عليه قائمون بمصالحه ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ الغد يطلق على اليوم الذى يلى يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد باليوم الذى يلى يومك وأصله غدو حذفت لامه والارتعاء هو التمتع بأكل الفواكه أو من المراعاة وهى الحراسة واللعب هو الاستباق والانتضال وهو المبارزة فى الرمى. ولقد جزم الفعلان فى جواب الأمر وقرئ يرتع بالنون والياء ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وأكدوا معيتهم له بالمحافظة عليه مما يسوؤه وقال ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ هذا اعتذار من يعقوب واعتذر لأمرين:

الأول: أمر عامل فى الحال وهو حزنه على فراقه. **الثانى:** فى الاستقبال وهو خوفه من الذئب إن غفلوا عنه وشغلوا بغيره وطمأنه إخوة يوسف من الأمر الثانى: فأقسموا له لئن كان ما يخيفه من عدو الذئب عليه من بينهم وهم عشرة رجال، بمثلهم تُعصب الأمور وتُدرأ الخطوب إن وقع ذلك فهم قوم خاسرون هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً. وعدل إخوة يوسف عن الأمر الأول لإيهامه بأن المدة قصيرة ولقد ذكر الصاوى أن سبب خوف يعقوب من الذئب أنه رأى مناماً رأى فيه أن ذئباً تعرض ليوسف.

تنفيذ المؤامرة:

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾. بين هذه الآية وبين ما قبلها حذف بالإيجاز تقديره فأجابهم إلى ما سألوا رحمة بيوسف حتى يستمتع الغلام بالجو

واللعب ودعا يعقوب لولده «استودعتك الله رب العالمين» ، قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ ﴾ أى عزموا واتفقوا على إلقائه فى الجب. وجواب لما محذوف تقديره فلما ذهبوا به وأجمعوا. فعلوا ذلك بأن نزعوا قميصه. ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا ﴾ احتمال بأن يكون الوحى وحياً حقيقياً أو إلهاماً تطميناً لقلبه ليخبرنهم بصنيعهم هذا ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وهو وقت إخبارهم بهذا الأمر لا يحسون أنك يوسف. وهذا الإخبار الوارد فى قوله تعالى ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾.

معنى الآيات

لقد كان فى قصة يوسف وإخوته أمارات كثيرة على حقائق إلهية ونبوية لمن ينقب عن الآيات ويهتم بها. وتبدأ القصة بحديث الحقد بين الإخوة فى شأن يوسف وأخيه اللذين أخذا مساحة كبيرة من قلب أبيهم وهذه المساحة أكبر من مساحتهم وهم كثيرون. فراحوا يفكرون ويأتمرون فمنهم من أشار بقتل يوسف ومنهم من أشار بتغريبه وإبعاده حتى يتفرغ لهم الوالد ويتوبون من إثمهم. وظهر فيهم صوت يبعد بهم عن المغالاة فى اتجاهاتهم فنهاهم عن قتله وأمرهم بإلقائه فى الجب وتحايلوا على الوالد الهائم فى حب ولده وسألوه سؤالاً محاطاً بسياج من التعجب ﴿مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾.

و ساقوا له ما يفرح الأطفال من الثمار واللعب فلا يقف عثرة فى سرور ولده ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فقدم لهم عذره وأقنعوا الوالد ووقف الوالد مودعاً صغيره وكأنه يشعر بأن ولده ليس له أَوْبَة فأودعه عند

الله الذى لا تضيع لديه الودائع. وذهبوا به وطفقوا ينفذون مؤامرتهم الدنيئة فلقد أعماهم الحقد وقتل مشاعرهم وبتر أحاسيسهم وألقوه فى غيابة الجب وكان الجب بوحشته وظلمته أرحم من إخوته وطمأنه الله فى وقت هذه الشدة العظيمة وهى أول شدة تطيح بعقل الطفل الصغير يوسف. فأوحى الله إليه بأنهم سيحتاجون إليه وأنه سيكون السيد وسيخبرهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

كذب و خداع

قال تعالى :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المباحث العربية

﴿ وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ ﴾ أى أتوا إلى أبيهم مساء فاختيارهم لوقت الليل يبيح لهم أمرين:

١- قبول أبيهم لعذرهم فلقد أتوا بالليل ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظلمة وهذا أدعى للقبول. ولذلك قيل لا تطلب الحاجة بالليل

فــإن الحيــاء فـــى العيـــنين ولا تعتـــذر بالنهـــار مـــن ذنـــب فتـــتلجلج في الاعتـــــذار.

٢- لن يكون أمام يعقوب فرصة فى الخروج للبحث عن يوسف. وعشاء منصوب على الظرفية وجملة «يبكون» فى محل نصب حال. وفى الكلام حذف بالإيجاز « وجاءوا أباهم دون يوسف عشاء يبكون ».

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾. قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نرمى ونتسابق ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ عند أمتعتنا وثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا ﴾ أى بمصدق لنا الواو واو الحال ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ «لو» يجوز أن تكون زائدة وهذه أسهل، ويجوز أن تكون شرطية وجوابها محذوف تقديره لاتهمتنا.

روى أنهم أتوا بقميصه ووضعوا دم سخلة أو جدى عليه ثم قدموه للوالد. وهناك قصص ساقها بعض المفسرين لا داعى منها فإنها من الإسرائيليات المنافية للعقل ومنها :-

(روى أنه قال - أى يعقوب - ما أحلم هذا الذئب يأكل ابنى ولا يقد قميصه وقيل إنهم أتوه بذئب قالوا هذا أكله فقال يعقوب: أيها الذئب أنت أكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله قال: والله ما أكلت ولدك ولا رأيته قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال له يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان ؟ فقال: جئت لصلة الرحم فأخذونى وأتوا بى إليك فأطلقه يعقوب»[1].

---

(١) حاشية الصاوى جـ ٢ ص ٢٠١.

قوله تعالى ﴿ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أى وجاءوا على قميصه بدم ذى كذب ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى قال يعقوب حين كذبهم: بل زينت لكم أنفسكم أمراً فاجتمعتم عليه. وفطن يعقوب لأمرهم لأن القميص لم يمزق وقيل كان فى قميص يوسف ثلاث آيات.

كان دليلاً ليعقوب على أن يوسف لم يأكله الذئب. وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، وكان فيه براءة يوسف حين قُدَّ من دبره.

قوله تعالى ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ الصبر حبس النفس عن الجزع وهو مبتدأ خبره أمثل والتقدير فصبر جميل أمثل أو أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره فأمرى صبر جميل والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ﴿ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ والله هو المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف.

معنى الآيات

و جاءوا أباهم مساء يبكون يدَّعون أنهم ذهبوا للاستباق وقد تركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب ويشعرون أن حيلتهم مكشوفة يكاد المريب أن يقول خذونى فيقولون ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أى وما أنت بمطمئن لما نقوله ولو كان هو الصدق لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقوله وأدرك يعقوب من دلائل الحال ومن هتاف قلبه فلقد قدموا حجة داحضة وهى قميصه السليم ملطخاً بالدماء فلما أدرك يعقوب حجتهم الواهية قال بل زينت لكم أنفسكم أمراً فالصبر على مصيبتى أمثل والعون من الله على تقبل هذه المصيبة التى تصفون فيها هلاك ولدى.

قال تعالى :

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المباحث العربية

﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ ﴾ السيارة جمع سائر أى مسافر، سمى بذلك لسيره فى الأرض، وكانوا من مدين آمين مصر جاءت يوسف فى اليوم الثانى من طرحه فى الجب وقيل كانت هذه السيارة تائهة تسير من أرض إلى أرض نزلوا قريباً من الجب، وقيل إن المدة التى قضاها يوسف فى الجب ثلاثة أيام، كان التسبيح فيها عزاءه، وقيل كان يأتيه يهوذا بالطعام خفية من إخوته.

﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ ﴾ الوارد هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم. وهن عدل بالضمير إلى واو الجماعة وكان السياق يقتضى أن يقال «فأرسلت» بتاء التأنيث مراعاة لمعنى السيارة فمعناها الجماعة. وكان هذا الوارد مالك بن ذعر الخزعى.

﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أى أرسلها ليستقى الماء. ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ ﴾ هنا إيجاز بالحذف تقديره فتعلق يوسف بحبل الدلو ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ ﴾ وفى هذا الموطن لغتان تدلان على صغر يوسف عليه السلام، الأولى: تعلقه بالحبل والثانية قول الوارد: هذا غلام. والغلام يطلق على الإنسان فيما بين الحولين إلى البلوغ. قوله ﴿ يَا بُشْرَى ﴾ البشرى هى الخبر السار إذ رأى الوارد أحسن خلق الله جمالاً وبهاء ونداؤه للبشرى مجاز لتنزيلها منزلة العاقل. وذكر غلام ليدل على التعظيم، لأنه كان عليه السلام حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق أبيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة كان إذا تبسم ظهر النور من ضواحكه وإذا تكلم ظهر من ثناياه وبالجملة لم يكن أحسن منه إلا سيدنا محمد ﷺ، فإن يوسف أعطى شطر الحسن ورسول الله ﷺ أعطى الحسن كاملاً.

قال البوصيرى:

مُنَـزَّهٌ عَنْ شَـرِيكٍ فِى مَحَاسِـنِهِ ... فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

(إن قلت إذا كان كذلك فلم لم تفتتن النساء بجمال محمد النبى ﷺ كما افتتن بجمال يوسف؟ أجيب بأن جمال محمد قد ستره الله بالجلال كالشمس لا يستطيع أحد أن يتأمل فيها إذا قرب منها ولذا لم ترد الشمائل الشريفة إلا عن

صغار الصحابة كالحسن والحسين وعبد الله بن عمر وغيرهم لا عن كبارهم لقيام الجلال بقلوبهم فيمنع من وصفه وأما جمال يوسف فهو ظاهر لم يستتر بجلال كالبدر فحينئذ يتأمل فيه المتأمل ويصفه الواصف غير أنه يعجز عن استيعاب محاسنه ومن هذا المعنى قول ابن الفارض:

لوْ أسْمَعُوا يَعْقُوبَ بَعْضَ ملاحةٍ .٠. فى وَجْهِهِ نَسِيَ الجَمَالَ اليُوسفيّ[1]

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ﴾ ضميرَ الرفع الظاهر فيه أنه يعود على السيارة التى أرسلت واردها والمعنى أى وأخفوا أمر يوسف من رفقتهم وكتموا أمره من وجدانهم له فى البئر. وقالوا دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. وقال ابن عباس الضمير فى «وأسروه وشروه» لإخوة يوسف حين علموا بإخراجه حضروا وإنهم قالوا للسيارة هذا غلام قد أبق لنا فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. و﴿ بِضَاعَةً ﴾ منصوبة على الحال أى متجراً لهم ومكسباً. والضمير المنصوب يعود على يوسف.

قوله تعالى: ﴿ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لم تخف على الله أسرار السيارة، وهذا وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم. أما إذا كان ضمير الرفع فى﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾راجعاً إلى إخوة يوسف فيكون المعنى: والله عليم بعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنع وفى هذا أعظم تذكار لما فعلوا بيوسف. وعبر بالمضارع ليدل على التجدد والحدوث فكل أعمالهم الماضية والمستقبلة علمها الله.

قوله تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ الفعل «شرى» بمعنى باع فإن كان ضمير الرفع يعود على السيارة

(١) حاشية الصاوى جـ ٢ ص ٢٠١.

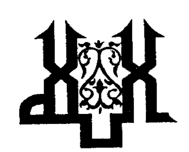
يكون المعنى: وباعوا يوسف بثمن بخس وإن كان عائداً على إخوته يكون المعنى وباعوا أخاهم ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾. و﴿ بَخْسٍ ﴾ مصدر بمعنى مفعول أى مبخوس أى ناق ودراهم بدل من ثمن. ومما يدل على أنه مبخوس بيعه بدراهم وليس بدنانير وكلمة معدودة تدل على القلة. و﴿ وَكَانُواْ ﴾ أى إخوة يوسف ﴿ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾. وإن كان الضمير يعود على السيارة فزهدهم فيه حين علموا من إخوته أنه عبد آبق فسيضيع مالهم فيه.

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ هو قطفير، أو أطفير وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر. ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أى أكرمى مقامه وتعهد به بالإحسان ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أحسنى إليه رجاء أن ينفعنا أو نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان العزيز عقيماً لا يولد له وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك. وقيل أفرس الناس ثلاثة العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾، والمرأة التى أتت موسى وقالت لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما. وهذا القول لابن مسعود رضى الله عنه ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أى وكما أنجيناهم من قبضة إخوته وعطفنا عليه وأكرمنا مثواه كذلك مكنا له فى الأرض ، أى جعلنا له مكاناً يقال مكنه فيه أى أثبته فيه ومكن له فيه والمراد بالأرض أرض مصر فالألف واللام للعهد ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ ولنعلمه تعبير الرؤيا وتأويل الأحلام وسميت أحاديث باعتبار الأحاديث فيها وقيل المراد بالأحاديث أحاديث الأنبياء ﴿ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ والله تعالى لا يعجزه شئ ﴿ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يدركون ذلك.

لطيفة: لم تذكر الآيات اسم امرأة العزيز ستراً وتعلماً للأدب وأن لا يذكر أحد زوجته باسمها بل أضاف النساء إلى أزواجهن، قال ذلك عن امرأة عمران وامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون وامرأة أبى لهب ولم تذكر امرأة باسمها سوى مريم ولقد ذكرها الله لأن النصارى زعموا أنها زوجة الله فذكرها باسمها رداً عليهم كأنه يقول إن أحدكم يستنكف عن ذكر اسم زوجته بين الناس فلو كانت زوجة لى لما ذكرتها باسمها.

معنى الآيات

انتهت مؤامرة الإخوة بطرح يوسف فى الجب فمرت قافلة فبعثوا ساقيهم ليأتى بالماء فتعلق يوسف بحبل دلوه قال الساقى يا بشرى هذا غلام واعتبروه بضاعة ثرية وعزموا على بيعه رقيقاً ثم بيع بثمن زهيد وكانوا فيه من الزاهدين ليتخلصوا منه. وانتهت رحلة القافلة بيوسف إلى مصر بيد أن العزيز اشتراه وأمر زوجته بإكرام مقامه والإحسان إليه. وتوسم فيه الخير فالخير يتوسم فى وجوه الصباح ومثل إنجائه من المؤامرة وإكرامه فى قصر العزيز مثل ذلك ثبته الله فى أرض مصر فالله لا يعجزه شئ ولكن الكفرة لا يدركون ذلك ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .



حياة يوسف فى قصر العزيز و ملامحها

قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ جمع رشده و«أشد» كنعمة وأنعم وهذا السن هو ثلاثون سنة ، وسئل الفاضل النحوى عن الأشد فقال: هو خمس وثلاثون وتمامه الأربعون)[1]. ولقد أتى هذا النص فى حق موسى بزيادة كلمة «استوى».

قال تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] لأن موسى عليه السلام كان قد بلغ الأربعين وهى سن النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل أعباء الرسالة وأسرارها. وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا السن فيكون المعنى: فلما بلغ الحلم.

قوله تعالى ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ أى أعطيناه حكمة وهى إصابة الحق فى القول وفى الفعل أو هى العلم مع العمل. والعلم: هو الفقه فى الدين. والتنكير فيهما يدل على التفخيم والتكثير ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى وكما جزيناه بكل خير ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ والمراد بالمحسنين أى الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم ، وهو اسم مفعول من الفعل أحسن ، فهو محسن.

محاولة امرأة العزيز إثارة يوسف:

قوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.
المراودة: مفاعلة ، تكون من الجانبين ولكنها هنا من جانب واحد هو امرأة

(١) البحر المحيط جـ ٥ ، ص٢٩٢.
(٢) سورة القصص آية ١٤.

العزيز ولما كان الجانب الآخر وهو يوسف سبباً فى حصول المراودة نـزل منزلتـه وذلك أن جمال يوسف سبب لميله وطلبها لـه فالمفاعلـة ليست علـى بابهـا وأصـل الكلمة كما يقول صاحب لسان العرب: (راودت الريح ترود روداً وروداناً جالت وفى التهذيب تحركت ونسمت تنسم نسماناً إذا تحركت تحركاً خفيفاً)[1].

والتعبير بكلمة «تراود» يدل على أنها جالت فـى خفـة ورقـة بروائحهـا المثيرة وزينتها العارية وأكثرت من ذلك ليواقعها.

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ أوصدت الأبواب بحيث يعسر فتحها وجـاءت صيغة الفعل على التكثير بدلاً من أغلقت لأنها بالغت فى إغلاق سبعة أبواب. لقد بدأت المرأة بـالمراودة أولاً. فلما لم تجـد استجابة منـه وتجاهلـها ولم تحـرك ساكنه خرجت عن طبيعة بنى جنسها فالعادة أن المرأة غالباً هى المطلوبة فصارت فى هذا الموقف طالبة. فغلقت الأبواب وأحكمت تغليقها ودعته إلى نفسها.

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ ، قال الواحدى: هيت لك اسم للفعـل ، نحـو رويـداً وصه ومه ، ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة[2].

و قيل هيت لك بالعبرانية هيالح أى تعالى بالعربيـة عرَّبـه القـرآن، وقـال الفراء إنها لغة أهل حوران سقطت إلى بكة فتكلموا بها وقال ابن الأنبارى: وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغـة العـرب والـروم فـى القسطاس ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغةالعرب والحبشة فى ناشئة الليل[3].

---

(١) لسان العرب جـ ٣ ، ص١٧٧٢.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ، ص١١٥ ، ص١١٦.

(٣) أنظر المرجع السابق.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ ﴾ معاذ: مصدر ناب عن الفعل والأصل أعوذ بالله معاذ ، كسبحان الله بمعنى أسبح الله والفعل المحذوف هو الذى عمل فيه النصب.

﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ كيف ينبه يوسف امرأة العزيز بهذا الأسلوب ويقول عن بعلها إنه ربى ؟ والجواب على ذلك أن يوسف عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون من كونه عبداً للعزيز وأنه ربَّاه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فكلام يوسف إنه ربى أى مربياً له وهذا من باب المعاريض..

و معنى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ إن حرف توكيد ونصب والضمير للحال والشأن وهو اسمها وربى خبرها وجملة أحسن مثواى جملة خبر ثان لـ«إن» ، أو هى جملة حالية. والمعنى: إنه ربَّانى وأحسن مقامى فلا يليق بى أن أخونه ، ولقد كان يوسف غاية فى الذوق والرقة حيث أرشد امرأة العزيز إلى رعاية حق زوجها بلطف ولم يفسدها ويوغر صدرها على زوجها كما يفعل كثير من الناس. قال رسول الله ﷺ «من خَبَّبَ زوجة امرئ أو مملوكه فليس منا»[1].

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى لا يفوز الزناة بشئ فى دنياهم وأخراهم. والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب معللة لامتناعه عن الوقوع فى المعصية.

معنى الهم:

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾. لقد أثار هذ النص أفكار العلماء القدامى والمحدثين وأدلى كل فريق بدلوه وولى

---

(١) رواه أبو داود.

بعضهم وجهه شطر آثار لا تخرج عن كونها إلا من مشكاة الإسرائيليات فقد رووا أساطير باطلة تصور يوسف هائج الغريزة مندفعاً شبقاً والله يدافعه بالبراهين الكثيرة وهو لا يندفع. وأساطير صورت يعقوب فى سقف المخدع عاضاً على إصبعه بفمه وأساطير صورت لوحة كتبت عليها آيات قرآنية تنهاه عن الزنا ﴿ولا تقربوا الزنا﴾. ومن هذه الآراء ما ساقه الفخر الرازى عن الواحدى ، قال الواحدى فى كتاب البسيط: قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم ، همَّ يوسف أيضاً بهذه المرأة همّاً صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه، قال جعفر الصادق ﷺ بإسناده عن على عليه السلام أنه قال طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه هم أن يحل التكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: حلَّ الهميان وجلس منها مجلس الخاتن وعنه أيضاً أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه. ثم إن الواحدى طول فى كلمات عديمة الفائدة فى هذا الباب وما ذكر آية يحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يُعوَّل عليه تصحيح هذه المقالة. وروى أن يوسف عليه السلام لما قال ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت يا يوسف فقال يوسف عند ذلك «وما أبرئ نفسى» ثم قال: والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا السهم عنه»[1].

وفى مقابل هذه الآراء ذهب فريق من العلماء إلى (أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل والسهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول) [2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ه ، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق.

و بعض أصحاب هذا الاتجاه ذهبوا إلى أن همَّ يوسف غير همِّ امرأة العزيز فهى همت ليواقعها و همَّ يوسف بدفعها عن نفسه أو همَّ بالفرار منها.

الرأيان فى الميزان:

الرأى الأول: حمل أهله على يوسف عليه السلام وليس لهم سند صحيح فى اتجاههم ولم يكونوا معه فى قصر العزيز حتى يصفوا ما وقع بينه وبين امرأة العزيز فهذا افتراء عليه ، أيصل بيوسف أن يلبى نداء غريزته ويهم بحل التكة، وأن يجلس من امرأة العزيز مجلس الرجل من المرأة وأنه جلس منها مجلس الخاتن. وأنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه وطمعت فيه وطمع فيها.

و الله إنه افتراء على يوسف عليه السلام. إن يوسف بفطرته وتكوينه الفطرى يدرك حرمة الزنا ويعف عن الخيانة ونسى هؤلاء العلماء أن علم الوراثة يمنع ذلك. فإذا كان الوالدان مجرمين فإنهما يورِّثان الذرية ذلك ولهذا أصل فى القرآن، قال تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[1].

ولقد رأيت بنفسى فى مركز شرطة أشمون فتاة قبض عليها وكانت تمارس الزنا بكثرة وتبرأ منها أبوها وكانت المفاجأة أنه ليس أباها بل قد وجدها طفلة ملقاة على قارعة الطريق فأخذها وتسلمها من مركز الشرطة بمحضر مسجل فلما كبرت هذه الطفلة مارست الزنا فلقد أتت عن طريق مركز الشرطة ومارست الزنا الذى كانت ثمرته.

---

(١) سورة النمل آية ٤٣.

ومن هذا المنطلق نقول إن يوسف حلقة من سلسلة نبوية بدؤها إبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب ثم يوسف ، فعن أبى هريرة ﷺ قال: «قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فيوسف نبى الله ابن نبى الله بن نبى الله ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك ، قال: فعن معادن العرب تسألونى خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا) [1]. والزنا خيانة وهو من الكبائر فكيف يشرع يوسف فى مقدماته ؟ أليس هذا افتراء؟

يقول الفخر الرازى: (إن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة فى معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب وأيضاً الصبى إذا تربى فى حجر إنسان وبقى تكفيه المؤونة ويرعاه من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فإقدام هذا الصبى على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال إذا ثبت هذا فنقول إن هذه المعصية التى نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة لجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفقر خلق الله تعالى وأبصرهم عن كل خير استنكف منها فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام) [2].

و الأدلة على براءة يوسف من الشروع فى تلك الجريمة ما يلى:

---

(١) رواه مسلم
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص ١١٧.

الدلائل على عفة يوسف عليه السلام و براءته

لقد هتفت قصة يوسف ببراءته: وأنه المثل الإنسانى الكامل فى العفة والطهر والأمانة. ولقد نطقت الدلائل ببراءته وشاهدها العزيز ومن معه قال تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ولقد سجنه العزيز مع علمه ببراءته لأن امرأته كانت تقوده كيف شاء لهواها وأن الغَيْرة قد ماتت فى طبعه، قال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ ﴾ هى الشواهد على براءته وما كان ذلك إلا باستنداال المرأة لزوجها وفتلها منه فى الذروة والغارب وكأنه مطواعة لها وجَمَلاً ذلولاً زمامه فى يدها حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه، وإلحاق الصغار به كما أوعدته به وذلك لما أيست من طاعته لها أو لطمعها فى أن يذلله السجن ويسخِّره لها) [1].

والآيات على براءة يوسف هى:

أولاً: قال الله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولما بلغ مبلغ الرجال وهو الأشد وهو ثمانى عشرة سنة أو عشرون أو ثلاث وعشرون أو خمس وعشرون أعطاه الله ﴿ حُكْمًا ﴾ حكمة وهى إصابة الحق فى القول وفى الفعل «علماً» وهو إدراك حقيقة الأشياء. ولقد وصفه الله بكونه محسناً قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ فمن كانت هذه أوصافه فلا يقع فى وحل الرذيلة.

---

(١) الكشاف جـ ٢ ، ص٣١٩، ط١ دار المعرفة بيروت لبنان.

ثانياً: حين بالغت امرأة العزيز فى عرض زينتها وجسدها على يوسف عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ فالمراد من المفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب فكأن امرأة العزيز تجئ وتروح أمامه لعرض نفسها ولم يلتفت إليها يوسف فتحولت من هذا الطور إلى طور أخرجها عن طبيعتها فالمرأة عادة تكون مطلوبة ولما يئست من طور العرض سلكت طريق الدعوة المكشوفة السافرة إلى الفعل الأخير القبيح فتغليق الأبواب لا يكون إلا فى اللحظة الأخيرة فالمرأة وصلت إلى اللحظة الحاسمة التى تلبى فيها طلب الجسد ونداء الغريزة ، قال تعالى ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ وإزاء هذا الإغراء يقف فتاها الممتلئ بالقوة والحيوية متكاملاً جميلاً فيرد عليها ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ الذين يقابلون الإحسان بالسوء أو أنه لا يفلح الزناة فهم ظالمون لأنفسهم.

ثالثاً: لقد قال الله عن يوسف ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ لقد وصف الله سبحانه وتعالى يوسف عليه السلام فى نهاية الآية بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ والمخلصون ينأى إبليس عنهم ولا يغويهم قال الله تعالى عنه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [1]. وهذا يدل على أن الشيطان لا يغويه فثبتت براءته.

رابعاً: قال تعالى ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ

(١) سورة ص آية ٨٢.

رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾.

وفى هذه الآيات عدة أدلة:

١- فى قوله ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ وفى هذا دليل آخر فلقد فرَّ يوسف من امرأة العزيز حين قالت هيت لك فأسرعت وراءه تريد أن تمنعه من الخروج فاجتذبته من قميصه فانشق وصادفا بعلها عند الباب ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾.

و لما وجدت أن الدليل واضح على براءة يوسف عن هيئتها معه ساقت حيلة تهدف إلى هدفين تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف وتخويفه طمعاً فى أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها[1]. ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

٢- قوله ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ هذا القول من يوسف يبرئ ساحته فهو الذى آتاه الله حكماً وعلماً بأنه من المحسنين ونعته بأنه من المخلصين ولقد قال الرسول ﷺ: « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»[2].

فمن كانت هذه صفاته فهو مقبول القول صادق فيما يقوله.

---

(١) أنظر الكشاف جـ ٢ ، ص٣١٣.

(٢) البخارى جـ ٤ ص١٨٤.

٣- قوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾.

ولقد اختلف العلماء فى الشاهد هل هو صغير أو كبير على قولين، عن عكرمة عن ابن عباس فى أحد قوله: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال ذو لحية[1].

و فى قول آخر عن ابن عباس: أنه كان صغيراً عن النبى ﷺ «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم»[2].

و لقد هتف النص القرآنى ببراءته فلقد قُدَّ قميصه من دُبُر.

٤- قوله ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ لقد رأى العزيز دليلاً ظاهراً على فجور زوجته وعلى عفة يوسف عليه السلام فقال لامرأته وللنسوة ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

٥- قوله ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ نادى العزيز على يوسف بقوله «أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الأمر» وهو طلبها منك واكتمه. واتجه إلى زوجته قائلاً ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ فما أجمل هذا الدليل وهو اعتراف الزوج بخطأ زوجته.

٦- قال تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٤ ، ص٣١٠.

(٢) المرجع السابق.

مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ففى الآية الأخيرة تعلن امرأة العزيز أنها راودته عن نفسه وتسوق محمدة ليوسف فتقول لقد رد دعوتى العارية بامتناع وإباء مبالغ فيهما يدل ذلك مبنى ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾.

٧- لما دخل يوسف السجن ورأى الملك رؤياه وفسرها يوسف وأتاه رسول الملك ليخرجه من السجن ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

هذا اعتراف وشهادة من النسوة ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ لقد قلن هذا القول تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن الريبة. واعترفت امرأة العزيز فقالت الآن ثبت الحق وظهر ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

درء شبهة:

قال تعالى ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ .

لقد ذهب بعض العلماء إلى أن القائل ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ

إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، قالوا إن القائل يوسف والحقيقة أن هذا القول قول امرأة العزيز فلو قلنا إنه يوسف لقطعنا النص عن السياق فالسياق و اللحاق متصلان والأولى والأليق أن يكون من كلام امرأة العزيز. والذين قالوا إنه من كلام يوسف ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ثم قال على سبيل التواضع ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. وما أُبَرِّؤُها حين همَّت دون أن تعزم فجنس النفس أمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربى. فالأليق أن يكون من كلام امرأة العزيز لأنه ليس هناك ذنب من جانبه حتى يلصق بها ذنباً ولا يبرئ ساحتها.

الأدلة العقلية على براءة يوسف:

أولاً: لقد مدح الله تعالى يوسف بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ عقب قوله ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء﴾. فهل يليق أن يذنب يوسف هذا الذنب ثم يمدحه الله تعالى بقوله ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾؟.

ثانياً: لو صدرت من يوسف زلة أو هفوة لأتبعها بإظهار الندم والتوبة والاستغفار وكانت الآيات قد ساقت ذلك.

ثالثاً: كل من كان له تعلق بأحداث القصر شهد ببراءته عليه السلام من المعصية.

يوسف عليه السلام نفى التهمة عن نفسه فى أكثر من موطن ونفت النسوة وامرأة العزيز التهمة عنه فى أبلغ عبارات ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ

الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [١].

و قالت امرأة العزيز قبل ذلك وهى تقف بين النسوة ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [٢]. فقولها ﴿ فَاسَتَعْصَمَ ﴾ الفعل (عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه)[٣]، فمعنى استعصم أى بالغ فى امتناعه والكلمة فيها زيادة بالسين والتاء وزيادة المبنى يدل على زيادة المعنى ويدخل فى امتناع يوسف أنه لم يلتفت إليها ولم تُحرِّك فيه ساكناً من الهم.

معنى الهَمِّ:

و بعد الآيات الدالة على براءة يوسف فإن كلمة «هَمَّ بكذا» معناها (نواه وأراده وعزم عليه) [٤]. ويتفرع عن هذا تفسيران لقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾.

التفسير الأول:

أن مادة الهمِّ واحدة فى حق امرأة العزيز وفى حق نبى الله يوسف عليه السلام. أما متعلق الهم فمختلف تماماً فامرأة العزيز همت به ليواقعها ويجامعها

---

(١) سورة يوسف آية ٥٠ ، ٥١.

(٢) سورة يوسف آية ٣٢.

(٣) لسان العرب جـ ٤ ،ص٢٩٧.

(٤) لسان العرب جـ ٦ ، ص٤٧٠٣.

ونصوص الآيات تفضح همها ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ . ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ . وهَمُّ يوسف مختلف تماماً عن همها ، وهو الابتعاد عنها ومدحته الآيات بذلك ، قال تعالى ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾ أى بالغ فى امتناعه. ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ . ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾.

أليست هذه النصوص كافية للتفريق بين متعلق هَمِّ امرأة العزيز وهَمِّ نبى الله يوسف؟

بلى: فيوسف نبى ، أو أنه لم يقع هم من يوسف عيه السلام أصلاً ويكون فى الآية تقديم وتأخير ، قال أبو حاتم: «و قرأت غريب القرآن على أبى عبيدة فلما أتيت على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ الآية. قال أبو عبيدة هذا على التقديم والتأخير كأنه أراد ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها»[1]. فالوقف على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾.

التفسير الثانى:

أن امرأة العزيز همَّت به ويوسف هم بها. بيد أن هم امرأة العزيز معصية لإصرارها عليه وهيَّأت الأسباب لتحقيقه. وهم يوسف بالمعصية بيد أنه لم يأتها ولم يصر عليها بل سلك سبيل البعد عنها فى جريانه والفرار إلى الباب ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ، ص١٧٧.

وهمُّه ذلك يثبت فحولة الرجولة ليوسف فلم يلبِّ نداء الطبيعة ولم يصغ لهاتف الغريزة فله حسنة ، قال عليه السلام فيما يرويه عن ربه ﷻ « إنّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسّيّئَاتِ. ثُمّ بَيّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عَزّ وَجَلّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَإِنْ هَمّ بِسَيّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً... وَإِنْ هَمّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيّئَةً وَاحِدَةً» [1].

ولقد ذهب كثير من المفسرين بأن هَمَّ يوسف كهَمِّ الصائم فى يوم صائف فهو ينظر إلى الماء المبرد فيشتهيه وهذا الاتصال لأن الماء للصائم محرم عليه من طلوع الفجر إلى الغروب وهو مباح ونعمة ، أما الزنا فهو كبيرة ومحرم فى الليل وفى النهار.

قوله تعالى: ﴿ لَوْلا أن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ البرهان هو الدليل ولم يبين الله ﷻ البرهان لتذهب النفس فيه كل مذهب، فيحتمل أن يكون ما يمنحه الله من الخوف والخشية منه ولا داعى لما ذهبوا إليه من أنه وجد مكتوباً ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى﴾ أو أنه وجد يعقوب عاضاً على إصبعه أو أن المرأة قامت إلى صنم تغطيه فتذكر الله تعالى وفى هذا بُعد عن الواقع ونصوص الآيات. أو أنه تمثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله لا داعى إلى ذكر ذلك.

وقفة تأمل:

عند علماء الحديث لو كان هناك حديث فى سنده راو جرَّحه جماعة وعند

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب. والبخارى جـ ٨ ، ص ١٢٨ ، كتاب الدعوات ، باب من هم بحسنة.

جماعة هو عدل وثقة فإنهم يأخذون بالتعديل ويبتعدون عن تجريحه. فالآيات كلها تبعد يوسف وتنأى به فى مقام يليق بسلوك الأنبياء قبل مبعثهم وبعد مبعثهم. وأما ما قيل عن الهم وتفسيره فهو من كلام بعض المفسرين واستقوا فكرهم من جداول مترعة بالإسرائيليات.

قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أى أريناه البرهان لنصرف عنه السوء أى الخيانة والفحشاء أى الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ هذه الجملة مستأنفة معللة لما سبق وهى مؤكدة بإن وإسمية الجملة. والإضافة فى عبادنا للتشريف. والمخلصين: جمع مُخلَص: وهو اسم مفعول بمعنى مجتبى: فمعناه: اجتباه واصطفاه.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

مناسبة الآية بما قبلها:

لقد تحدث الله فى الآيات السابقات عن هم امرأة العزيز بيوسف وأتبع فى هذه الآيات بما ترتب عن هذا الهم من طلبها له وهروبه منها.

الدلائل على عفة يوسف:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أى تبادرا إليه، يوسف للفرار منها خوفاً من المعصية، وامرأة العزيز للتشبث به فأمسكت بثوبه وجذبته إليها ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ شقت قميصه من الخلف ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أى صادفا بعلها عند الباب

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «ما»: يحتمل أن تكون نافية، ويكون المعنى ليس جزاؤه إلا السجن. ويجوز أن تكون استفهامية ويكون المعنى: شئ جزاؤه إلا أن يسجن. كما يقال: من فى الدار إلا عمرو ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثير الإيلام.

لطائف:

الأولى: قوله تعالى فى آية سابقة ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ جمع الأبواب وقال تعالى هنا ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ بالإفراد. فلقد جمع الباب لأن المرأة لم تتمكن من المراودة إلا بعد غلق تلك الأبواب.. وأفرد لأن تسابقهما لم يكن إلا عند باب واحد من تلك الأبواب.

الثانية: كان مقتضى قوة الرجولة أن يسبق يوسف المرأة ولا تلحق به فلماذا لحقت به وشقت قميصه؟ إن الذى أعاق يوسف اشتغاله بفتح أحد هذه الأبواب. وثبتت القرينة على براءته من شق ثوبه.

الثالثة: بدأت امرأة العزيز بذكر السجن وأخرت ذكر العذاب لأن المحب لا يسعى إلى إيلام المحبوب.

الرابعة: لم تذكر امرأة العزيز أن يوسف يجب أن يعامل بأحد الأمرين السجن أو العذاب بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب.

دفاع يوسف عن نفسه:

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾.

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ أى قال يوسف هى راودتنى عن نفسى وإنما قال ذلك لكونها اتهمته فلو آثرت السكوت لسكت يوسف وما تكلم بشئ.

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال الله من أهلها ليكون ذلك أقوى فى نفى التهمة عن يوسف. ولقد اختلف العلماء فى هذا الشاهد إلى اتجاهين:

الأول: أنه كان فى المهد ولقد وردت الأحاديث الصحيحة فى شأن ذلك. روى عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم». ساقه الطبرى فى تفسيره.

و قيل إنه كان كبيراً حكيماً وكان فى ذلك الوقت داخلاً مع الملك فلما رآهما على الحال الذى استبقا فيه الباب وأدركت يوسف وقالت لسيدها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فرد يوسف بقوله ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

قوله ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾. هذا القول قول الشاهد ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ﴾ شق من الأمام فصدقت لأنه سيكون هو المقبل عليها وهو المعتدى عليها. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أى من الخلف ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾ فهى الطالبة له وهو الفار الهارب منها. والتهمة منفية عن يوسف هنا بما يأتى إنه خرج منها هارباً والطالب لا يهرب منها وكونها متزينة بأكمل الوجوه ومنها شقها للقميص من الخلف.

ظهور الدليل على نفى التهمة:

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ أى فلما رأى زوجها قميص يوسف شق من الخلف ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ

﴿كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ الضمير فى قوله «إنه» أى ضمير الحال والشأن. والكيد هو الخداع والمكر ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ أى إن كيدكن فيما يتعلق بأمر الجماع والشهوة عظيم. وإنما وصف الله ﷻ كيد النساء بالعظم وكيد الشيطان بالضعف لأن كيد النساء أقوى بسبب أنهن حبائل الشيطان فكيدهن مقرون بكيد الشيطان فهما كيدان بخلاف كيد الشيطان فهو كيد واحد.

محاولة وأد الخبر:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

كان أول ما فعله العزيز هو التكتم على الخبر حتى لا ينتشر فى مصر فكثيراً ما تدور أحداث وأخبار فى قصور الملوك والرؤساء فإن تسرب شئ منها خارج القصور فالناس تتلقفه ويجعلونه فى سمرهم وأنديتهم وتكثر التفاسير. من أجل هذا قال العزيز ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ الأمر الذى وقع من سيدة القصر. ثم اتجه إلى زوجته فقال لها ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ المراد بالذنب الذى طلب منها زوجها الاستغفار منه هو خيانتها لزوجها. فلم يفعل العزيز سوى ذلك لأنه كان قليل الغيرة. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أى إنك كنت من الآثمين.

معنى الآيات السابقات

و لما بلغ يوسف الحلم آتاه الله حكمةً وعلماً وفقهاً فى الدين. وذلك قبل أن يبعث نبياً ويقول تعالى وكما جزيناه نجزى المحسنين: الذين أحسنوا أعمالهم وأقوالهم. ولما استقر به المطاف فى قصر العزيز وظهرت نضارة الشباب على محيا

يوسف ومع النضارة الفتوة والقوة ولا غرو فقد منحه الله نصف الجمال ومما لا ريب فيه أن امرأة العزيز فتنت به وأحبته حباً شديداً وتطور هذا إلى أن نداء الفطرة والغريزة يدفعها لتستميل يوسف إليها وطفقت تنسج خيوط شباكها حتى يقع فيها الفتى يوسف فأخذت فى إغرائه. والقرآن يتحدث عن الإغراءات الأخيرة ويسوق الحديث عنها، فيسوق دعوة المرأة ليوسف لتلبية نداء الفطرة وقضاء حاجة غريزتها وهى دعوة سافرة مكشوفة خرجت بها عن طبيعة بنى جنسها فالمرأة تكون دائماً هى المطلوبة. وإن طلبت فإنها تتفنن فى تقديم المعاريض أما امرأة العزيز فقامت بحركة تغليق الأبواب ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فكان رد يوسف رداً يطفئ نيران هذه الغريزة المتأججة ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ ثم ذكَّرها بنعمة زوجها عليه ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين يتجاوزون حدود الله فيرتكبون ما تدعيننى إليه.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ وهذا تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة من وحل الرذيلة ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ وآثر التخلص من الموقف فجرى نحو الباب ودفعها هياجها الحيوانى فتعلقت بقميصه من الخلف وهو يجرى فقدَّته ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ ويتبدى الكيد العظيم لتجد جواباً حاضراً على السؤال الذى يهتف به المنظر المريب فتتهم الفتى ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا﴾ ويبدو أنها امرأة تعشق فهى تخشى عليه فتسير بالعقاب المأمون ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ويخـرج يوسـف عـن صـمته ويجهـر بالحقيقـة فـى وجـه الاتهـام الباطـل ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ ويحسـم الموقـف أحـد أهلـها فـى هـذا النـزاع ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فكذبت وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾ وظهرت عفة يوسف فلما رأى العزيز قميص يوسـف قطع ومزق من الخلف قال: إنه من خداعكن إن كيدكن عظيم. فهـى لباقـة صـدرت فى مواجهة حادث يثير الدم فى العـروق. فتلطـف فـى مجابهـة زوجتـه ونسـب الأمر كله إلى الجنس كله. فكان العزيز بارداً ويبـدو أن العزيـز صـنع ذلـك حتـى لا ينتشر الخبر بدليل أنـه قـال بعـد ذلـك ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

إنتشار الخبر فى المدينة و آثاره

إنتشار الخـــبر:

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

المباحث العربية

النسوة: اسم جمع لا واحد له من لفظه ولقد اختلف فى عـدد النسـوة فقيـل خمسة. وهن امرأة صاحب الملك، وامرأة صـاحب دوابـه، وامـرأة خبَّـازه، وامـرأة

ساقيه، وامرأة صاحبة سجنه. وقيل أربعون امرأة، ويجمع بين الرأيين بأن أصل الإشاعة كان من الخمس ثم انتشر حتى وصل إلى الأربعين. والمدينة: هي مصر.

﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ امرأة: مبتدأ، وتراود فتاها عن نفسه خبره. والمراد بالفتى العبد.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ جملة في محل رفع خبر ثاني ومعنى ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ الشغاف جلدة رقيقة تحيط بالقلب. والمعنى أن حب يوسف خرق تلك الجلدة ووصل إلى القلب وسكن في القلب. أو أن المعنى أن حب يوسف أحاط بفؤادها كما يحيط الشغاف به. و«حباً» تمييز محوَّل عن الفاعل والأصل قد شغف حبه قلبها. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ومعنى الضلال المبين: الخطأ البين.

محاولة امرأة العزيز إبداء عذرها

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٢) ﴾

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فلما سمعت امرأة العزيز بغيبة النساء لها. ولقد سميت الغيبة مكراً لأنها تخفى من المغتاب كما يخفى المكر. ولقد أتى النص بالمكر لأنه يجمع الغيبة والخداع، قوله ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أى دعتهن وهيأت لهن طعاماً فقوله ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ فلقد أحضرت الطعام والفواكه وسُمِّى الطعام متكئاً لأنه يُتَّكأُ عنده على عادة المتكبرين المترفين. ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ إنها دعت هؤلاء النسوة وهيأت لكل واحدة مجلساً معيناً وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطيع اللحم أو الفاكهة ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ إنها أمرت يوسف أن يخرج عليهن. ولم يخالفها يوسف خوفاً منها حتى لا تلصق له تهمة أخرى ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ لما حرف وجود لوجود أو هى حرف وجوب لوجوب أى أن وجود جملة اقتضى وجود جملة أخرى وقوله ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ مرتب على محذوف تقديره فخرج فلما رأينه «أكبرنه» أى أعظمنه وهبنه ودهشن عند رؤيته من شدة حسنه فلقد كان جميلاً.

وعن النبى ﷺ قال: «مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بى إلى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا؟، فقال: هذا يوسف فقيل يا رسول الله كيف رأيته؟ قال كالقمر ليلة البدر». وقيل كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها وقيل كان يشبه آدم يوم خلقه ربه. وهذا القول هو الذى اتفقوا عليه. وعندى أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة ولا سيما الرسالة وآثار الخضوع والاحتشام وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية وهى عدم الإلتفات إلى المطعوم والمشروب وعدم الاعتداد بشئ وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة

فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ودفع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى) [1].

قوله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ كناية عن دهشتهن وحيرتهن والسبب فى حسن هذه الكناية أن الواحدة منهن لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها. ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو: قلن حاشا لله بإثبات الألف بعد الشين وهى رواية الأصمعى عن نافع وهى الأصل لأنها من المحاشاة وهى التنحية والبعد، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن إتباعاً للمصحف. وحاشا كلمة تفيد معنى التنزيه، والمعنى هنا تنزيه الله من العجز حيث قدر على خلق جميل مثله. وأما قوله ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله [2].

قوله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بشراً: خبر ما فهى عاملة عمل ليس فهى ترفع المبتدأ وتنصب الخبر واسم الإشارة اسمها مبنى على السكون فى محل رفع ولقد تحقق فى ما شروطها وهى أن يتقدم الاسم وأن لا يكون مسبوقاً بإن وأن لا تدخل إلا على الخبر ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ هذا أسلوب قصر بالنفى والاستثناء فـ«إن» بمعنى «ما» النافية. والملَك واحد الملائكة وهم خلق من نور لا يوصفون بالذكورة أو الأنوثة فطروا على الطاعة ﴿لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وهم مطهرون عن بواعث الشهوة وجواذب الغضب ونوازع الفهم والخيال. فطعامهم توحيد الله وشرابهم الثناء على الله. ﴿ كَرِيمٌ﴾ من كرم الشئ إذا نفس وعز.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ، ص١٢٤.

(٢) المرجع السابق .

قولــه تعــالى ﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾. هذا القول من امرأة العزيز يدل على إبداء عذره فى حبها ليوسف عليه السلام، فاسم الإشارة للبعيد مع أن يوسف كان حاضراً فى المجلس فاسم الإشارة يدل على تعظيم يوسف من قبل امرأة العزيز فاسم الإشارة لتعظيم رتبته لا لبعده عن المجلس أو لبعد منزلته عن منزلة غيره من البشر. والمعنى: فذلكن الذى لمتننى فى حبه. ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ اللام لام قسم محذوف. ولقد طلبتُ منه ما تريده المرأة من بعلها ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ فبالغ فى امتناعه ولا يخفى زيادة المبنى ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ اللام لام القسم و«إن» شرطية وجواب القسم محذوف لأن المتقدم القسم والشرط ما يلى. والله ليسجنن وإن لم يفعل ما آمره ليسجنن ويكن من الصاغرين. والصاغرين الذليلين. ولقد سمعت النسوة الحوار فقلن ليوسف أطع مولاتك.

إيثاره السجن على المعصية

قال تعالى:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

المباحث العربية

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ قال يوسف داعياً ربه ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ أى دخول السجن والمحبوب دخوله لا ذاته. وأفعل

التفضيل أحب ليس على بابه لأنه ليس هناك حب للسجن ولا حب لما يدعونه إليه وأحدهما يفضل الآخر. وإنما هذان شران آثر أحدهما وهو السجن وفيه مشقة وترك الآخر مع ما فيه من لذة لأنه يغضب الله ﷻ. قوله ﴿ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ الفعل المضارع مبنى على سكون الواو والنون الأولى نون النسوة والنون الثانية نون الوقاية، فهو مثل النسوة يعفون، فالواو ليست ضميراً بل هى لام الكلمة فليس من الأفعال التى ترفع بالنون. وأضاف الفعل إليهن لأنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن أو لأنهن لما قلن له أطع مولاتك صح إضافة الدعاء إليهن جميعاً.

قوله ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ صبا صبواً[1] من باب قعد بمعنى مال. والصبوة الميل إلى الهوى ومنه ريح الصبا لأن النفس تستطيبها وتميل إليها. وقوله ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ «وإلا» مكونة من «إن» الشرطية و«لا» النافية، وتصرف فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمة السكون. وجواب الشرط «أصب» مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة وهو الواو. ﴿ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فعل معطوف على الفعل أصب فهو مجزوم مثله وعلامة جزمه السكون ﴿ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى من المذنبين.

ومعنى قول يوسف ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كأنه ﷺ يقول «اللهم اصرف عنى كيدهن لأجل لا أصير من الجاهلين لأنك إن لم تصرفه عنى صرت منهم إذ لا قدرة لى على الامتناع إلا بإيمانك وإسعافك لى » وإذا سبرنا غور النص وجدنا يوسف قد فزع والتجأ إلى الله ولقد جرى يوسف على سنن الأنبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة

---

(١) أنظر المصباح المنير.

عن الشرور على جناب الله وعدم الاعتماد على القدرة الذاتية ولقد فعل يوسف فِعْل المستغيث بالله أدركنى يا رب وإلا هلكت.

قوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فأجاب الله دعاءه فصرف عنه خداع النسوة ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لمن دعاه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأموره وأحواله، والجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة وهى مؤكدة بـ «إن» واسمية الجملة، وفيها أسلوب قصر بتعريف الطرفين المبتدأ والخبر السميع. وفى الجملة صيغتان من صيغ البلاغة على زنة فعيل.

ظلم ووأد الإشاعة

قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾

المباحث العربية

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ ثم ظهر لهم بعد ما عاينوا براءة يوسف بدا لهم سجنه إلى أجل معين وهو سبع سنين وقيل اثنتا عشرة سنة. وقوله ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾. اللام موطئة لقسم محذوف والتقدير. ظهر لهم سجنه حتى يئدوا الخبر ويستأصلوا شأفة الإشاعة فإيداعه السجن يتوارى عن الناس فلا يذكره الناس

بخلاف ظهوره بين الناس ورؤيتهم له. ففاعل بدا يؤخذ من السياق يدل على قوله ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾، والتقدير «بدا لهم سجنه».

معانى الآيات

انتشر الخبر خارج القصر وأصبح حديث نساء مصر بأن امرأة العزيز مفتونة بفتاها بلغ حبه شغاف قلبها وهى السيدة الكبيرة زوج العزيز كيف تفتن بفتاها ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فلما سمعت بمكرهن أقامت لهن مأدبة فى قصرها اعتدت لهن الوسائد والفرش وقدمت لهن الطعام وآتت كل واحدة منهن سكيناً تستعملها فى الطعام وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهن بيوسف فلما رأينه أكبرنه فبُهِتْنَ لطلّته ودهشن فجرحن أيديهن بالسكاكين. لدهشة المفاجأة وقلن ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها فقالت ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ ﴾ ثم تعجبت ولم تعبأ بالجهر بنزواتها الأنثوية ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ .

ويسمع يوسف قولها فى وجود النساء المبهورات المبديات لفاتنهن ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ فأضرع إليك أن تصرف عنى كيدهن فإن لم تصرف عنى كيدهن أقع فى الزلل وأكن من الجاهلين. فأجاب الله دعاءه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع لدعاء من يدعوه عليم بأحواله.

و كعادة أجواء القصور فبعد أن عاينوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف وبعد أن تعلن المرأة فى مجمع النسوة دون حياء أنه إن لم يفعل ما يؤمر به يلق

فى السجن. واختار الصِّدِّيق حياة السجن ففيها بُعد عن معصية الله ثم ظهر لهم من بعد ما رأو الآيات ليسجننه حتى حين.

أيام السجن ومعالمها

قال تعالى:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

المباحث العربية

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ﴾ الفتيان مثنى فتى وهو الشاب الحدث واستعير للعبد المملوك ولقد وردت آراء مختلفة فى اسمهما فقيل كان اسم أحدهما وهو ساقى الملك "سرهم" والآخر وهو صاحب طعامه واسمه "برهم" وسبب سجن الفتيين أن جماعة من أهل مصر أرادوا قتل الملك فجعلوا لهما رشوة على أن يدسا السمَّ فى طعامه وشرابه، فأجابا ثم إن الساقى ندم ورجع والخباز قبل الرشوة وسمَّ الطعام فلماحضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم فقال الخباز لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم فقال الملك

للساقى اشرب من الشراب فشرب. وقال للخباز كل من الطعام فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أنهما دخلا مع يوسف السجن ولما دخل يوسف السجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبله وكان يسلى حزينهم ويعود مريضهم ويسأل لفقيرهم ويندبهم إلى الخير فأحبه الفتيان ولزماه وأحبه صاحب السجن والقيم عليه وقال له كن فى أى البيوت شئت فقال له يوسف:

(لا تحبنى يرحمك الله فلقد أدخلت إلىَّ المحبة مضرات، أحبتنى عمَّتى فامتحنت بمحبتها وأحبنى أبى فامتحنت بمحبته وأحبتنى امرأة العزيز فامتحنت بمحبتها، وعن قتادة: كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول: اصبروا تؤجروا إن لهذا لأجراً فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يا فتى قال: يوسف بن صفى الله يعقوب) [1]. ولقد رأى كلاهما رؤيةً تعلقت بحاله وبمستقبله قوله ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وهو ساقى الملك ﴿إنى أرانى﴾ عبر بالمضارع فى قوله ﴿أرانى﴾ مع أن الرؤية وقعت فى الماضى إما لحكاية حال ماضية أو لاستحضار الصورة فى الذهن وأرى تنصب مفعولين الأول الياء وجملة أعصر خمراً هى المفعول الثانى وهى فى محل نصب وقوله ﴿أعصر خمراً﴾ مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان. وقد يكون القول أجْرى على الحقيقة وأن الخمر هو العنب بلغة غسان أو بلغة أهل عمان. وقوله ﴿ وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآخر: هو خابز الملك والتعبير بالمضارع كالتعبير السابق لقد رأى فوق رأسه ثلاث سلال فيها

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ، ص٣٠٨.

الخبز وأنواع الأطعمة المختلفة وسباع الطير تنهش منها. قوله ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى إنا نراك من العالمين بالرؤيا والذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم. فلقد كان يعود المرضى ويقوم الليل ويصوم النهار ويصبر أهل السجن.

قوله ﴿ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ هذا القول يحتمل وجهين:

الأول: أن المراد إتيان هذا الطعام فى المنام والمعنى أى طعام رأيتماه فى المنام وأخبرتمانى به فسرته لكما قبل أن يقع فى اليقظة ووقع كما أخبرتكما به. وخص يوسف ذكر الطعام دون غيره لأن رؤياهما تتعلق بالطعام. وقول يوسف هذا يدل على أنه يلفت انتباههما إلى أنه يخبرهما بعلم غيبى وهذا من نور النبوة.

الثانى: أن المراد إتيان الطعام فى اليقظة والمعنى لا يأتيكما طعام ترزقانه من منازلكما وتأكلانه إلا نبأتكما بتأويله بقدره وكيفيته والوقت الذى يصل فيه قبل أن يأتيكما أى قبل أن يصل إليكما. وهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام، حيث قال ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أوحاه إلىَّ وعلمنيه ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ إن هذا الذى أخبرتكما به وحى من الله، قوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿إنى تركت﴾ الترك هو عدم التلبس بالشئ وعدم الالتفات إليه ﴿ملة﴾ أى إنى تركت دين قوم لا يصدّقون بالله وهم بالدار الآخرة جاحدون منكرون.

معنى الآيات

ابتلى يوسف عليه السلام بدخول السجن ودخل معه السجن فى توقيت واحد فتيان ساقى الملك وخابزه واتهما بالمؤامرة على الملك وقتله وأودعا السجن

حتى تجمع الدلائل على العقوبة أو البراءة فرأى الساقى والخباز الرؤيا على يوسف فلقد أخبرهما بأنه رزق تعبير الرؤيا، قال الساقى: إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه أخبرنا يا يوسف بتفسيره. فكشف لهما قبل أن يخبرهما بالتأويل عن أن الذىم يخبر به وحىٌ من الله لم ولن يلتبس بشئ من دين القوم وهم أهل مصر فى ذلك الوقت فهم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة منكرون.

إعلان يوسف عن عقيدته

قال تعالى :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لقد سبق أن قال يوسف ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فذكر أنه رفض ملة القوم ثم كشف عن ملته فى هذه الآية ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبى يوحى إليه وهذا ما ذهب إليه بعض العلماء بأنه نُبِّئَ فى السجن وهو دون الأربعين وقيل نُبِّئَ على رأس الأربعين.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولقد ذكر ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب لشهرة نبوتهم عند الأمم. وكيف قال واتبعت ملة آبائى إبراهيم وهو نبى والنبى يكون مختصاً بشريعة نفسه؟

والجواب عن ذلك: لعله أراد أنه اتبعهم فى أصول الأديان وهى الدعوة إلى التوحيد وإثبات الرسالة. والعبادة. وإثبات البعث والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر هو اسم كان ومن حرف جر مزيد للتوكيد، شئ خبر كان منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

و معنى الجملة ما كان لنا الشرك بالله شيئاً ووقوع النكرة «شئ» فى سياق النفى «ما» أفاد العموم. ومعناه ما يلى: إن أصناف الشرك كثيرة منها عبادة الأصنام ومنها عبادة النار. ومنها عبادة الكواكب ومنهم من يعبد الحيوان وغيره. فأتت النكرة فى سياق النفى لتفيد عموم الشرك ونفيه ولا ينبغى إلا التوحيد.

﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ ذلك اسم الإشارة مشار به إلى نفى الشرك وحصول الإيمان بالله من فضل الله على المؤمنين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفرة ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ الله ويشركون به.

معنى الآية

يهتبل يوسف فرصة ليعلن عن عقيدته بين السجناء فكونه سجيناً

لا يمنعه من الإعلان عن عقيدته الصالحة القائمة على إعطاء الرب حقه. وعقيدته هى ملة التوحيد الخالص الذى سار على دربها أجداده وأبوه. و الهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين. وهو فضل فى متناول الناس جميعاً لو اتجهوا إليه.

وفى رسالات الرسل بيانه وتقريره ولكن أكثر الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرون الله تعالى.

مناقشة أهل السجن فى عقيدة الشرك و دحضها

قال تعالى:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٤٠) ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما تحدث يوسف عن عقيدته وأنه اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب شرع فى هذه الآيات فى مناقشة أهل السجن فى عقيدة الشرك التى يعتنقونها فدحضها بالأدلة العقلية ليغرس فيهم عقيدة التوحيد.

قوله ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ نداء باسم الصحبة فى المكان الشاق الذى تخلص فيه المودة وهذا القول يحتمل أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف والمعنى ياصاحبى فى السجن يحمل أن يكون من إضافته إلى السجن كأنه قيل يا ساكنى السجن كأصحاب النار وأصحاب الجنة وجعلهما صاحبى السجن لكثرة الملازمة وطول المكث.

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ لقد أبرز الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل على بطلان عبادتهما. وهذا هو الأوجه فى محاجة الجاهل يؤخذ أولاً بدرجة يسيرة من الاحتجاج فيقبلها فإذا قبلها أخذ إلى درجة أخرى فوقها إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق. ولقد أفادت المقابلة فى الأرباب المتفرقين على الواحد المتصف بالقهر التنبيه على أنه تعالى له هذا الوصف الذى معناه الغلبة والقدرة التامة وما سواه عار عن هذا الوصف فالله وحده هو الجدير بالعبادة دون غيره وهل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى قال يوسف ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾لقد خرج الكلام على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا أنه حصل منها خير فهى خير أم الله الواحد القهار ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء﴾ أى من غير الله فالضمير فيه يعود على الواحد القهار، وهذا أسلوب قصر ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ المعنى ما تعبدون إلا ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم فهى فارغة لا مسميات تحتها ولقد ذهب بعض الناس إلى أنهم يعبدون تلك الأصنام لا على سبيل أنها الخالقة الرازقة ولكن على سبيل أن الله أمر بعبادتها فوردت الآية لترد عليهم.

﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ السلطان هو الحجة وموقعها من الإعراب مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد للتوكيد ونكّر ليفيد العموم فهو واقع فى سياق النفى. والمعنى ما أنزل الله أى حجة تؤيد فساد عقولهم فى عبادة غير الله.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ إن بمعنى ما النافية وهذا أسلوب قصر بالنفى والاستثناء والمعنى ما الحكم فى العبادة من أمر ونهى إلا لله وحده وليس للأصنام ولا لغيرها من المعبودات التى عبدوها.

قوله ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ ألاّ مكونة من أن ولا، و يجوز أن تكون مصدرية ناصبة ولا نافية. وتعبدوا فعل مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة ويجوز أن تكون «أن» مفسرة و«لا» ناهية والفعل المضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون. وهذا أسلوب قصر. وهو قصر العبادة على الله دون غيره.

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ اسم الإشارة مشار به إلى عبادة الله وحده فهذا يدل على أنها فى المنزلة الشريفة العالية ومعنى القيم الثابت. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس وهم الكفرة، لا يعلمون: لا يدركون ذلك.

معنى الآيات

لقد دخل يوسف مدخلاً لطيفاً على صاحبيه فدخل خطوة خطوة فى حذر ولين ثم يتوغل إلى قلبيهما وناقشهما فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أآلهة متفرقون

لا خير فيهم وعلى سبيل الفرض أنهم فيهم خير فهل هم خير أم الواحد القهار. ثم خاطبهم بقوله: ما تعبدون من غيره إلا ألفاظاً أحدثتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ما الحكم فى أمر العبودية إلا لله والله أمر أن لا يعبد إلا هو وذلك الدين القيم الثابت بيد أن أكثر الناس من الكفرة لا يعلمون.

تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه

قال تعالى:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لما ألقى إليهما ما كان أهم وهو أمر الدين رغبة من يوسف فى إيمانهما ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب.

المباحث العربية

قوله ﴿ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ أما حرف يفيد التفصيل والفاء واقعة فى جواب الشرط المستفاد من «أما»، وكلمة «ربّه» أى سيده والمراد به الملك. ومعنى الجملة أما أحدكما فبعد ثلاثة أيام يخرج ويعمل فى بيت الملك

ويسقى الخمر للملك وأما الآخر فيصلب بعد ثلاثة أيام وتأكل الطير من رأسه ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾. أى وجب حكم الله عليكما بالذى أخبرتكما به وتم. وأفرد الأمر مع أنهما مختلفان لأن المقصود مفرد وهو الحكم والمعنى قضى الحكم ﴿الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أى الذى سألتما عنه.

معنى الآيات

بدأ يوسف يؤول رؤيا صاحبه فقال أما أحدكما وهو الساقى فيسقى سيده خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه انتهى الأمر الذى فيه تستفتيان.

لطيفة:

لم يكن يوسف قاسياً عندما كشف لهما عن التأويل ولكنه كان صادقاً ومع ذلك لم يحدد لأحدهما أنه سيخدم الملك ويسقيه الخمر ولم يحدد للآخر الصلب بل قال أما أحدكما وأما الآخر دون تعيين.

تطلع يوسف لعرض قضيته على الملك

قال تعالى:

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

مناسبة الآية بالآيات السابقة:

لقد سبق فى الآية السابقة أنْ وضَّح يوسف الحق للساقى وصاحبه وفى هذه الآية قال للساقى الذى ظن أنه ناج ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ ليتوصل إلى هداية الملك إلى الإيمان بالله تعالى.

المباحث العربية

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ فاعل الظن إما أن يكون يوسف ويكون حينئذ معنى الظن اليقين والمعنى وقال للذى أيقن يوسف أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك. وتفسير الظن باليقين لأن يوسف علم تأويل الرؤيا عن طريق الوحى بدليل قوله ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ، ومثال تفسير الظن باليقين قوله تعالى ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ويجوز أن يكون الظن الشك ، قال الراغب الأصفهانى[1] : (الظن: اسم لما صحل عن أمارة و متى قويت أدت إلى العلم).

ويحتمل أن يكون فاعل ظن ضميراً مستتراً يعود على الساقى تقديره هو وعند ذلك يكون الظن بخلاف اليقين. وتفسير الظن بخلاف اليقين مع يوسف مستبعد. وقوله ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أى اذكر مظلمتى عند سيدك.

و لقد تناول هذا النص فريقان: فريق قال: الضمير المفعول به يعود على الناجى فيكون المعنى: أنسى الشيطان الناجى ذِكْرَ يوسف لربه.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٣١٧.

وذلك بما يوسوس إليه من اشتغاله حتى يذهل عما قال له يوسف، لما أراد الله بيوسف إجزال أجره بطول مقامه فى السجن.

وفريق آخر قال: الضمير يعود على يوسف: والمعنى: أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله وذلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فإن الاستعانة بالمخلوق فى دفع الضرر وإن كانت جائزة إلا أن يوسف نبى والنبوة أعلى المقامات ورتبتها أعلى المراتب ويوسف مؤاخذ بهذا القدر، فحسنات الأبرار سيئات المقربين والرأى الأول هو الصحيح وهو الأولى فعود الضمير على الساقى الناجى لأمرين:

الأول: إن أقرب مذكور للضمير هو ﴿ناج منهما﴾ فى قوله ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ .

الثانى: كيف نقول على نبى إن الشيطان أنساه ذكر ربه. هناك الرأى الأول يسمو بيوسف فى وجاهة عظيمة.

﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ فمكث يوسف فى غياهب السجن بضع سنين وكلمة بضع بكسر الباء وبعض العرب يفتحها استعماله فى العدد من الثلاثة إلى التسعة أى أنها تدل على العدد من ثلاثة إلى تسعة ولها حكم العدد من الثلاثة إلى التسعة فى الإفراد والتركيب أى أنها تذكَّر مع المعدود المؤنث فقوله فى الفصل بضع فتيات. وتؤنث مع المعدود المذكر فتقول بثت الإذاعة بضعة برامج — وهنا ذكرت مع المعدود المؤنث سنة. والمدة التى لبثها يوسف هى سبع سنين وقيل ثلاث سنين.

معنى الآية

وقال يوسف للذى أيقن أنه ينجو من السجن والقتل اذكر حالى وحقيقتى عند سيدك الذى تقوم بخدمته ونسى الناجى ذكر ربه فى زحمة حياة القصر وملهياتها فمكث يوسف فى السجن بضع سنين.

رؤيا الملك فتح لباب الفرج

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لقد سبق أن تحدثت الاية السابقة عن قول يوسف للناجى ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ ثم تحدثت هذه الآية الأولى عن دُنُو الفرج الذى يقطع أيام السجن برؤيا الملك فرؤياه كانت فرجاً.

المباحث العربية

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ هو ملك مصر وهو الريان بن الوليد ﴿إِنِّي أَرَى﴾ التعبير بالمضارع لأمرين: إما لحكاية حال ماضية، وإما لاستحضار الصورة فى الذهن

﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ العجاف جمع عجفاء وهى الهزيلة وجمع عجفاء عُجْف بضم العين وسكون الجيم. ولكن الجمع أتى مخالفاً للقياس لأنه حمل على سمان لأنه نقيضه وقد يحمل النقيض على النقيض كما يحمل النظير على النظير.

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ التقسيم السابق فى البقرات نقيض التقسيم فى السنبلات. وحذف العدد من قوله ﴿ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ لدلالة قسيمه عليه وهو ﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ دلالة ما قبله عليه أيضاً ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

الملأ هم أشراف دولته وأعيانها الذين يحضرون مجلسه ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ بينوا لى غموض رؤياى ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن حرف شرط يجزم فعلين الأول فعل الشرط والثانى جوابه وجزاؤه. و«كان» فعل ماض مبنى على السكون لاتصاله بتاء الضمير وهو فى محل جزم فعل الشرط وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنتم للرويا تعبرون فأفتونى.

﴿ تَعْبُرُونَ﴾ عبارة الرؤيا مأخوذة من عبر النهر إذا جازه من شط إلى شط فكأن عابر الرؤيا ينتهى إلى آخر تأويلها وعَبَرَ الرؤيا بالتخفيف ثلاثياً هو المشهور وأنكر بعضهم تشديد الباء.

﴿قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ﴾ أضغاث جمع ضِغث بكسر الضاد وسكون الغين. ومعناها بالجمع أخلاط. وأحلام جمع حُلم بضم أوله وسكون ثانيه ويجوز ضمه. وجمعوا أضغاث وأحلام للمبالغة فى وصف الحلم

بـالبطلان أو لتضـمُّنه أشـياء مختلفـة. ويريـدون بـالأحلام المنامـات الباطلـة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ مـا نافيـة وهـى تعمـل عمـل لـيس وخبرهـا بعالمين والباء فيه حرف زيد للتوكيد ولا يخفى المعنـى الـذى يترتـب علـى وقـوع النكرة عالمين فى سياق النفى وهـو العمـوم فنفـيهم العلـم بتأويـل الرؤيـا مطلقـاً أو المراد بعموم نفيهم العلم بتأويل الأضغاث. وما نحن بتفسير الأحلام بعالمين.

معنى الآيات

دنا الفـرج وفـتح بابـه برؤيـا رآهـا الملـك ، فلقـد رأى سـبع بقـرات سمـان يبتلعهـن سبع هـزيلات ، ورأى سـبع سـنبلات خضـر وسـبعاً أخـر يابسـات قـد استحصدن فالتَوَت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتهن شئ، فقلق الملك واضطرب مما رأى من استيلاء الضعيفِ على القـوى فقـصَّ مـا رآه على حاشيته من الكهنة وغيرهم فقالوا أخـلاط أحـلام ومـا نحـن بتأويـل الأحـلام بعالمين. وسمع الذى نجا من السجن والقتـل برؤيـا الملـك وتـذكر يوسـف وتأويلـه للرؤى. فقال لهم جميعاً أنا أخبركم بتفسيره فأرسلون.

الناجى يدل على يوسف

قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

لقد تحدثت الآيات السابقة عن طلب الملك من الملأ تفسير رؤياه وشق على الملأ التأويل وفى هذه الآيات يتذكر الناجى يوسف بعد أن علم عجز الملأ عن تفسير الرؤيا فقال أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون.

المباحث العربية

قوله ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ جملة «وادّكر» إما حال من اسم الموصول أو الواو حرف عطف والفعل ادّكر معطوف على الفعل نجا. فيكون من عطف الجمل حيث عطفت الجملة الفعلية بفاعلها «وادّكر» على جملة نجا.

«وادّكر» أصله «اذتكر» بتاء بعد الذال وقلبت التاء دالاً فاجتمع متقاربان بأن أبدل الول من جنس الثانى وأدغم فيه وصارت وادكر. قوله ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ لفظ مشترك بين معان عدة فتطلق الكلمة على العالِم وحيد دهره المنفرد بعلمه كما فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وتطلق ويراد بها أشياع النبى المعتنقون لدينه ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾. وتطلق ويراد بها الحين كما فى الآية التى نحن بصددها. والمدة التى أُنسِيها الناجى قيل سنتان أو سبع سنين أو تسع سنين.

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أنا أخبركم بتفسيره والضمير المضاف إلى تأويل ذكر ليعود على الحلم «فأرسلون» جمع مع أن الذى يرسله واحد للتعظيم. وفى الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فأرسلوه فأتى يوسف فقال، فالمحذوف

ثلاث جمل ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

و ناداه بقوله يوسف أيها الصديق أى كثير الصدق ولقد قال له الناجى ذلك لأنه جربه فى السجن فى تعبير الرؤيا وغيره ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ على رجائى أن أرجع إلى «الناس» أى الملك وأصحابه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لكى يعلموا أو على رجائهم أن يعلموا. ومعنى العلم إدراك حقيقة الشئ والمعنى لكى يدركوا حقيقة الرؤيا.

لطيفة:

لقد علَّم الناجى الناس الأدب فى النداء ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾. وعلم الناس الأمانة والدقة فى نقل الحديث وهو أنه نقل كلام الملك فى رؤياه دون زيادة أو نقصان لأنه يطلب تأويله فكان دقيقاً فى نقلها وليجئ التأويل ملاصقاً فى السياق لذكرها.

المباحث العربية

و قال الناجى بعد أن تذكَّر يوسف الذى كان يعبِّر الرؤيا لهم فلقد سقط من ذاكرته مُدة من الزمن قال أنا أخبركم بتفسير حلم الملك فابعثونى فأتى يوسف فقال له يا يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لكى يدركوا حقيقة الرؤيا.

تأويل يوسف لرؤيا الملك

قال تعالى:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لما انتهت الآية السابقة بقول الناجى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ إلى آخر الآيات، فالناجى قص رؤيا الملك على يوسف وطفق يوسف يفسِّرها.

المباحث العربية

قوله تعالى ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ هذا أسلوب خبرى يُراد به الأمر، وخرج الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى إنجاز المأمورية، والمعنى ازرعوا سبع سنين، ﴿ دَأَبًا﴾ مصدر وقع موقع الحال ومعناه متتابعة. وهى تأويل السبع السمان.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فما حصدتم أى فالذى حصدتموه فدعوه فى سنبله لئلا يفسد فلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ إلا قليلاً مما حصدتموه فادخروه للطعام ولا تتركوه فى سنبله.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ اسم الإشارة مشار به إلى السبع المخصبات و ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ السبع المجدبات الصعاب وهى تأويل السبع العجاف ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يأكلن أى السبع الشداد يأكلن الذى قدمتم لهن من الحب المزروع فى السنين المخصبات والمعنى تأكلونه فيهن ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ إلا قليلاً من الذى تدخرون ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أى من بعد السنوات المجدبات ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ عام فاعل يأتى ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يغاث إما من الغوث وهو الفرج وزوال الكرب أو من الغيث وهو المطر والمعنى فيه يزول كرب الناس ويفرج عنهم بنزول المطر وتتابع الخير عليهم وفى هذا العام يعصرون الأعناب وغيرها.

لطائف:

تضمن كلام يوسف ثلاثة أنواع من القول:

أحدها : تعبير بالمعنى لا باللفظ.

والثانى: عَرْضُ رأىٍ وأمْرٌ به وذلك فى موطنين: «تزرعون» وأمرَ به على سبيل المراد من الأسلوب الخبرى، والعرض الثانى «فذروه فى سنبله».

و الثالث: الإعلام بأمر غيبى ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ فلقد عَرَضَ وفسَّر وعالج، وهذا يوحى بأن الله أراد بأهل مصر خيراً،

فلقد قيَّضه الله لأن يقوم بحلول مشاكل أرض الكنانة في السنوات العجاف. وهذا من منن الله على هذا البلد.

ومن جهة أخرى لقد أشار الرسول ﷺ إلى قسوة هذه السنوات العجاف روى البخاري أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول (اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)

معنى الآيات

لقد أوَّل يوسف الرؤيا وليس التأويل المباشر المجرد إنما هو التأويل والنصح بمواجهة العواقب وهذا أكمل، قال: ازرعوا سبع سنين متتالية وهي السنوات السبع السمان المرموز لها بالبقرات السمان فما حصدتم فاتركوه في سنابله لأنه يحفظه إلا قليلاً منه فجردوه من سنابله لتأكلوه واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف وهي السبع الشداد التي لا زرع فيها ولا خير وكأن السنوات العجاف هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها فإذا انقضت السنوات العجاف والتي أتت على ما ادخروا من سنوات الخصب يعقبها الخير عام فيه يغاث الناس بالزرع والماء والضرع وتنمو كرومهم، وسمسمهم وزيتونهم فيعصرونهما زيتاً.

يوسف يبرهن على براءة نفسه

قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ

﴿ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

تحدثت الآيات السابقة عن تأويل يوسف لرؤية الملك فلما سمع الملك التأويل من الناجي واستحسنه قال ائتوني به وهو ما تحدثت عنه هذه الآيات.

المباحث العربية

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ الضمير عائد على يوسف والرسول هو الناجي أو غيره بعد أن دلَّه الناجي. فأتى الرسول إليه قائلاً أجب الملك. فأبى يوسف أن يخرج من السجن إلا بعد إن ينكشف أمره على أهل مصر وتزول التهمة الكاذبة ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾.

وهذا سلوك مدحه الرسول ﷺ في يوسف قال عليه السلام «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته»[1].

---

(١) رواه البخاري.

﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ أى ارجع إلى سيدك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أى فسل الملك بأن يسأل ما شأن تلك النسوة وما حالهن. ليعلم براءتى من تلك التهمة والمراد بالنسوة اللاتى قطّعن أيديهن اللاتى حضرن وليمة امرأة العزيز وقطّعن أيديهن حين أطل عليهن يوسف عليه السلام.

﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ تفسير الرب يحتمل أمرين: الأول: أن المراد به الله ﷻ فهو العالم بخفيات الأمور ومنها كيد النساء. الثانى: أن المراد بالرب هو العزيز وجعله يوسف رباً له لكونه مربياً والمراد بكيد النساء فى حق يوسف يحتمل وجوهاً:

١- أن كل واحدة من النسوة ربما طمعت فيه فلما لم تجد المطلوب أخذت فى نسبته إلى القبح.
٢- لعل كلَّ واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها وهذا كيد.
٣- أو أن المراد من كيدهن أنهن قبحن يوسف عند الملك.

قوله تعالى ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ فى الكلام مجاز بالحذف تقديره فرجع إليه الرسول فأخبره بما قال يوسف فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز وقال لهن: ما حالكن إذ راودتن يوسف عن نفسه «إذ» ظرف بمعنى الوقت، راودتن أى طلبتن منه فعل شئ ولقد نزه الملك يوسف عن كل قبيح فقال ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ لأمرين:

١- أنّ مفسر هذه الرؤيا صاحب حكمة وصاحب مكارم الأخلاق. وأن هذا التفسير يكشف عن أمر غيبى يتعلق بالمستقبل ولا ينبئ عن ذلك إلا نبى فهو منزه عن القبيح.

٢- يجوز أن يكون قد عرف عفة يوسف من أحد حاشيته.

قوله ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ لقد سبق معنى حاش لله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ قال ابن عطية: «أجاب النسوة بجواب جيد تظهر فيه براءة أنفسهن جملة وأعطين يوسف بعض البراءة»[1].

وأقول: لقد نفى النسوة أى سوء عن يوسف فى قولهن ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ والمعنى: تنزيهاً لله عن العجز حيث خلق مثل يوسف ولقد بالغن فى إتمام هذا المعنى حين قلن ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ و﴿ سُوءٍ﴾ نكرة ومن حرف جر مزيد للتوكيد. ووقوع النكرة فى سياق النفى يفيد العموم وليس معنى حرف الجر﴿مِن﴾ التبعيض. وهذا أنسب وأولى مما ذهب إليه ابن عطية.

﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ ما أشجع هذه المرأة التى استيقظ ضميرها وأعلنت عفة يوسف واعترفت بأنها هى التى راودته عن نفسه وآثرت كلمة ﴿ حَصْحَصَ ﴾ على «وضح» أو «بان» للمبالغة فى الوضوح حيث إن وضح أو بان فعل ثلاثى وحصحص فعل رباعى وزيادة المبنى يدل على زيادة المعنى ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ حيث نفى التهمة عن نفسه قائلاً ﴿هى راودتنى عن نفسى﴾ ولقد أكدت كلامها بمؤكدات هى:

---

(١) البحر المحيط جـ ، ص٣١٧.

١- إن ٢- أسمية الجملة

٣- لام التوكيد التى دخلت على حرف الجر. والصدق هو مطابقة الخبر للواقع.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

هذا الكلام كلام امرأة العزيز فما زال حديثها ممتداً وذهب كثير من المفسرين إلى أنه من كلام يوسف ومعناه أى طلب البراءة ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى أهله وحيث لم يطلع على ذلك أحد إلا الله.

و الذى أراه: أن الكلام من قوله تعالى ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ إلى نهاية قوله تعالى ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هو أولى أن نرده إلى امرأة العزيز فإن ألفاظ النصوص تهتف بأنها من كلامها وأيضاً ما كان هذا المقام مقام يوسف فيوسف كان لا يزال فى سجنه والدليل على ذلك أنه بعد أن قالت تلك النصوص قال الله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ .

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ الملك أنى لم أخن العزيز بالغيب. أو ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى الخفاء ﴿بِالْغَيْبِ﴾ جار ومجرور حال. ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ جمع خائن والخائن هو الذى لم يحفظ ما اؤتمن عليه.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

والذين ذهبوا إلى أن الآيتين السابقتين هما من قول يوسف قالوا عن الآية الثانية قال يوسف ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ على سبيل التواضع والأولى كما سبق أنها من جملة كلام امرأة العزيز.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ هذا اعتذار عما وقع من امرأة العزيز من مراودة يوسف عن نفسه فهذا مما يقع فيه البشر من الشهوات والنفوس مائلة إلى الشهوات أمارة بالسوء ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ .

هذه جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مؤكدة بإن واسمية الجملة واللام و ﴿ أَمَّارَةٌ ﴾ كثيرة الأمر «بالسوء» بما يسوء الإنسان من الأفعال القبيحة ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي﴾ ما موصولة والتقدير إلا من رحم ربى. والتقدير إلا الذى رحمه ربى والنفس الأمارة بالسوء (هى أن النفس الإنسانية واحدة، ولها صفات منها الأمارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث مراتب هى صفات لنفس واحدة. فإذا دعت النفس إلى شهواتها ومالت إليها فهى النفس الأمارة بالسوء، فإذا فعلها أتت النفس اللوامة ولامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات فتحصل عند ذلك الندامة على ذلك القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة) [1].

قوله ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب والأساليب البلاغية فيها التوكيد واسمية الجملة وصيغتا المبالغة فعول وفعيل. أى كثير المغفرة كثير الرحمة.

معنى الآيات

حمل الناجى تفسير الرؤيا من يوسف وأداها للملك وبطانته فبهر بها فقال ائتونى به فلما جاءه رسول الملك قال ارجع إلى ربك فاسأله يسأل النسوة، ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم. لقد رد يوسف الأمر

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص٤٦٠.

للملك وهو السجين المتعطش للحرية وحتى يستوثق ويتحقق الملك من شأن النسوة ولقد فعل ذلك لأنه واثق من نفسه واثق من براءته مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً ولا يخذل طويلاً. وأحضر الملك النسوة يستجوبهن وقد استقصى الملك هذا الأمر فعلمه فقال ما شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه وأمام هذا الاتهام من الملك يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار فتشجعت امرأة العزيز وأعلنت أن الحق ظهرت أماراته وأنها هي التي راودت يوسف عن نفسه وإنه لمن الصادقين وهذه شهادة كاملة بنظافة وبراءة يوسف، فلم تبال المرأة بما وراءها مما يلم بها (ذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ولست أبرئ نفسي من تهمة مراودة يوسف فهذه رغبة بشرية وإن النفس لأمارة بالسوء إلا الأنفس التي رحمها ربها والله غفور للمذنبين التائبين رحيم بهم).

لطائف:

لقد أقرت امرأة العزيز بأنها التي راودت يوسف عن نفسه لواحد من هذه الحوافز الثلاثة:

١- لقد لاحت في الأفق أن الجريمة لم تقع واعترفت النسوة على أن يوسف لم يقع منه سوء ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ ويوسف اعترف بأنه لم يقع منه شئ فالجريمة لم تقع وقالت امرأة العزيز ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فالمراودة تغفر لها بخلاف جريمة الزنا.
٢- لقد أقرت امرأة العزيز لحرصها على أن يحترمها يوسف المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية ويظل احترامه لها كسيدة القصر.
٣- شجاعتها على الاعتراف بعد أن أحست بظلم يوسف فاستيقظ ضميرها. ولم تعبأ بما وراء اعترافها شجاعة منها.

العز بعد ذُلّ السجن

قال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد ساقت الآيات السابقة حديث النسوة عن يوسف بقولهن ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وأقرت امرأة العزيز بأنها هى التى راودته عن نفسه وأنه لمن الصادقين. فلقد رأى الملك فيه الصدق ورأى فيه الأمانة على الأعراض، فالأمانة على الأعراض أندر من الأمانة على الأموال وغيرها ثم تحدثت هذه الآيات عن اختيار الملك له لهذه الأمانة ولعلمه فقال ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾.

المباحث العربية

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ ، أستخلصه: الاستخلاص طلب خلوص الشئ من جميع شوائب الاشتراك أى أجعله خالصاً لى دون شريك

فجاءه الرسول وقال أجب الملك فقام وودّع أهل السجن. وأستخلصه فعل مضارع مجزوم لوقوعه فى جواب الأمر إئتونى. وإنما طلب الملك أن يستخلص يوسف لنفسه لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء الثمينة فعلم أن يوسف يجمع الكمالات الإنسانية.

﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ هذه العبارة تدل على سمو يوسف على الملك فلقد بدأ الملك بالحديث على خلاف المعهود من ملوك ورؤساء البشر. فإنهم الذين يبدأون بالكلام. (روى أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك، فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم عطِّف عليهم قلوب الأخيار ولا تعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار فى الواقعات. وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً جدداً فلما دخل على الملك قال: اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان فقال لسان آبائى وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلمه بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال أيها الصديق إنى أحب أن أسمع رؤياى منك) [1].

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ﴾ مكين أمين أى ذو مكانة وأمانة. وكلمة «لدينا» تدل على قرب يوسف من الملك ولا يفوته حضور مجلس من مجالس الملك لأن معنى الكلمة لدى ظرف مكان بمعنى عند ولا يستعمل إلا فى الحاضر.

---

(١) البحر المحيط جـ ٥ ، ص٣١٩.

و لقد اشتملت الجملة على التوكيد بإن واسميته الجملة واشتملت على كلمتين على وزن فعيل صيغة مبالغة.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ أى اجعلنى على خزائن الطعام والأموال. والمراد بالأرض أرض مصر فتكون «أل» للعهد وليست للجنس. ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ هذه الجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة وهى مؤكدة بإن واسمية الجملة وفيها صيغتا مبالغة ومعنى حفيظ أى حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل إن معنى حفيظ عليم أى إنى حاسب كاتب، وقيل حفيظ لما استودعتنى عليم لما وليتنى. وقيل حفيظ للحساب عليم بلغة كل من يأتينى.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وكإنعامنا على يوسف بالخلاص من السجن له فى أرض مصر ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ جملة فى محل نصب حال من يوسف ومعناها يسكن ويتمكن من أى جزء من أرض مصر ﴿ حَيْثُ يَشَاءُ﴾ حيث يريد.

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ نمن ونخص بفضلنا على من نريد من عبادنا ومن الفضل النبوة. ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا نضيع جزاء المحسنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم، أو ولا نضيع جزاء الذين يعبدون الله كأنهم يرونه. ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ اللام جواب قسم محذوف والتقدير والله لأجر. والأجر الجزاء والآخرة مؤنث الآخر والمراد بها الدار الآخرة يوم القيامة. ولأجر الآخرة أعظم. ﴿ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم المحسنون السابقون فى قوله ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ و أظهر فى موضع الإضمار وكان السياق يقضى

ولأجر الآخرة خير لهم ولقد أفاد الإظهار إضافة وصف الإيمان إلى الإحسان. ﴿آمَنُوا﴾ صدقوا بقلوبهم ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ عبَّر بالمضارع ليدل على التجدد والحدوث ومعنى يتقون يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقاية.

لطائف:

الأولى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ لقد بدأ الملك بقوله ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ ليت الذين يطلبون السلطة الذين يركعون على أقدام الحكام ويتهافتون على نظرة رضى وكلمة ثناء، يا ليتهم يعرفون أن الكرامة والإباء والاعتزاز أعظم من التزلف والانحناء لأن المناصب لن تدوم وأنهم لا محالة هالكون فهذا يوسف.

الثانية: لقد طلب يوسف الإمارة حين قال للملك ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ والرسول ﷺ: نهى عن طلب الإمارة فلقد صح عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكِّلت إليها وإن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْت عليها» أخرجاه في الصحيحين.

و الجواب على ذلك: إنما يكره طلب الإمارة إذا لم يتعين عليه طلبها، فإذا تعيَّن عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهة في ذلك فأما يوسف عليه السلام فكان واجباً عليه الإمارة لأنه مرسل من الله والرسول أعلم بمصالح الأمة من غيره. وقد علم يوسف عن طريق الوحي بأنه يتولى خزائن مصر فطلبها.

الثالثة: ما مصير امرأة العزيز بعد اعترافها، قال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ قال الملك قد فعلت. فولاه فيما ذكر أعمال أطفير وعزل إطفير عما كان عليه.

يقول الله ﷻ ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (قال: فذكر لى والله أعلم أن إطفير هلك فى تلك الليالى وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة إطفير: راعيل وأنها حين دخلت عليه قال أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصدّيق لا تلمنى فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا وكان صاحبى – زوجى – لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت. فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له رجلين أفرآيم بن يوسف وميشا بن يوسف وولد لإفرآيم نون والد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليه السلام. وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف فقالت الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكاً بطاعته والملوك عبيداً بمعصيته) [1].

معنى الآيات

و قال الملك ائتونى به أجعله مستشاراً خالصاً لى دون أى عمل آخر. فلما كلمه يوسف قال له الملك إنك اليوم عندنا ذو مكانة وأمانة ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ولم يطلب يوسف هذا لشخصه بل أراد أن

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص٣٢١.

يضطلع بالواجب المرهق الثقيل ذى التبعة الضخمة فى أوقات الأزمة المقبلة وليكون مسئولاً عن إطعام شعب كامل وشعوب ستأتى إلى مصر فى أوقات سيعصف بها القحط والجدب.

ومثل إنعامنا على يوسف بالخلاص من السجن مكنا له فى الأرض ينزل فى أى بقعة من بقاعها حيث يشاء فالله يختص بفضله ما يشاء من عباده ولا يضيع جزاء المحسنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم. ولجزاء الآخرة لهم أعظم.

لقاء يوسف بإخوته

قال تعالى :

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١)﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد تحدثت الآيات السابقة عن تمكين الله ليوسف فى أرض مصر وملك خزائن أرضها وعم القحط البلاد وأصاب البلاد المجاورة تحدثت هذه الآيات عن مجئ إخوة يوسف إلى مصر يريدون الطعام بثمنه فدخلوا على يوسف عليه السلام.

﴿ وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ جاءوا إلى مصر إلا بنيامين. ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ دخلوا على يوسف وكان من دأب يوسف أنه إذا وصل إلى بابه من البلاد البعيدة جماعات تفحصهم فظهر له أنهم إخوته فعرفهم ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لا يعرفونه وسر عدم معرفتهم ما يأتى:

١- أنهم حين ألقوه فى الجب كان صغيراً ثم أنهم رأوه بعد وفور اللحية وتغير الزى والهيئة ووجوده فى كوكبة حكام مصر وهو على السرير وعلى رأسه التاج.
٢- العرفان والتذكير يكونان من الله فلعل الله لم يخلق فيهم العرفان والتذكير.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ ولما إذا دخلت على الفعل الماضى للعلماء فيها رأيان: الأول أنها حرف وجود لوجود أى أنها تقتضى جملتين وجدت الثانية عند وجود الأولى.

و ذهب جماعة إلى أنها حينئذ ظرف بمعنى حين، ومعنى ﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ هيأ لهم الطعام. ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقد كان استوضح منهم أنهم لهم أخ قعد عند أبيهم (روى أنه لما عرفهم أراد أن يخبرهم بجميع أمرهم فباحثهم بأن قال لهم ترجمانه أظنكم جواسيس فاحتاجوا إلى التعريف بأنفسهم فقالوا نحن أبناء رجل صديق وكنا اثنى عشر رجلاً ذهب منا واحد فى البرية وبقى أصغرنا عند أبينا وجئنا نحن للميرة – أى للطعام –) [١].

---

(١) البحر المحيط جـ ، ص٣٢١.

﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾

لقد قال يوسف ﴿ بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ولم يقل ائتونى بأخيكم من أبيكم لقد قال قوله زيادة فى إيهامهم فى عدم معرفته بهم ومبالغة فى التعمية عليهم. وتجد الفرق فى هذين القولين مررت بغلامك ومررت بغلام لك. فإن القول الأول يقتضى أن عندك كثير معرفة بالغلام وأن التول الثانى يقتضى عدم المعرفة الكثيرة بالغلام.

﴿ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ غرض يوسف من هذا القول الترغيب فى عودتهم مرة أخرى فتكون «ألا» للتحضيض والعرض. ومن معانيها أيضاً التنبيه.

﴿ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أى أتمه من غير بخس ولا نقص ﴿ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ أى خير من يكرم الضيفان ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴾ وهدف يوسف من قوله هذا هو الترهيب وجواب الشرط «إن» قوله ﴿فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي ﴾ واقترنت جملة الجواب بالفاء لأنها صدرت بحرف نفى والمراد بقوله «فلا كيل» أى فلا طعام لكم عندى. وهذا نهاية التخويف لأنهم محتاجون إلى الطعام. ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ «لا» ناهية. والمعنى ولا تدنوا من بلادى ولا تدخلوها. والفعل مجزوم بلا وعلامة جزمه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة وهذه النون المثبتة هى نون الوقاية وحذفت ياء المتكلم على سبيل التخفيف، وأصل الفعل «تقربوننى» فالنون الأولى نون الفعل وهى المحذوفة للجزم والنون الثانية نون الوقاية وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ السين للاستقبال ومعنى ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ﴾ سنجتهد فى طلبه منه ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ هذه الجملة مؤكدة

لجملة ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا﴾ وهى مؤكدة بمؤكدات إنَّ، وإسمية الجملة. واللام.
ومعناها وإنا لفاعلون ما فى وسعنا من الاجتهاد وفى طلبه والاحتيال فى نزعه منه.

معنى الآيات

اجتاح الجدب والجوع كثيراً من البلاد فاتجه إخوة يوسف من أرض كنعان إلى أرض مصر فلقد سمع الناس بفائض الغلال التى حفظوها من السنوات السمان فدخلوا على يوسف ولا يعرفونه بيد أنه عرفهم فهم لم يتغيروا كثيراً أمَّا هم فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذلك الغلام العبرانى الصغير الذى ألقوه فى الجب منذ عشرين عاماً أو تزيد فهو عزيز مصر شبه المتوج فهم لا يتخيلونه وهو فى سنه وزيه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه.

﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ وتركهم يوسف يأنسون إليه واستدرجهم فى الحديث حتى ذكروا له هويتهم على وجه التفصيل وإن لهم أخاً من أبيهم قام فى خدمة أبيه لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه فلما هيأ لهم الطعام قال لهم إنه يريد أن يرى أخاهم هذا وقال لهم لقد رأيت أننى أوفى الكيل للمشترين فسأوفيكم كيلكم حين يجئ معكم ورأيتم أننى أكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى منى الإكرام المعهود. فإن لم تأتونى به فلا طعام لكم عندى ولا تقربون بلادى فردوا عليه قائلين سنجتهد فى طلبه وإنا لفاعلون.



سخاء يوسف لإخوته رجاء عودتهم

قال تعالى:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣)
قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد سبق فى الآيات السابقة أن إخوته قالوا له ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ وفى هذه الآيات صنع بهم ما يحثهم على الاجتهاد فى عودة أخيهم وعودتهم إليه مرة أخرى.

المباحث العربية

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ أى غلمانه أى العبيد والخدم ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ البضاعة هى الثمن الذى أتوا به ليشتروا به الطعام وكان دراهم وقيل

كان جلوداً. وغير ذلك والأولى أنه كان دراهم لأن الدراهم يسهل إخفاؤها فى الرحال. ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ الرحال جمع رحل وهو كل شئ يعد للرحيل من وعاء المتاع ومركب للبعير وحلس ورسن[1].

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ على رجاء أن يعرفوها ﴿ إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ ﴾ إذا رجعوا إلى أهلهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى لكى يرجعوا أو على رجاء أن يعودوا. فلعل إما أنها للترجى أو أنها بمعنى كى.

أسباب جعل البضاعة فى الرحال:

لقد رد يوسف ثمن الطعام لإخوته وأعطاهم الطعام دون مقابل ووضعها فى أوعيتهم دون علمهم بها فعل ذلك لسبب من هذه الأسباب: -

الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء فيبعثهم ذلك على العودة إليه.

الثانى : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق - الفضة - ما يرجعون به مرة أخرى.

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان قحط.

الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم.

الخامس : قال الفراء أنهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد أنبياء أو رجعوا ليعرفوا السبب فيه.

---

(١) الحلس: كساء يوضع على ظهر البعير وجمعه أحلاس . و الرسن: هو الحبل وجمعه أرسان.

السادس : أراد أن يحسن إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة.

السابع : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب الأخ لأجل الإيذاء والظلم ولا لطلب زيادة فى الثمن.

الثامن : أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له كمزيد الإكرام فلا يثقل على أبيه إرسال أخيه.

التاسع : أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان وكان يخاف اللصوص فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية إلى أن يصلوا إلى أبيهم.

العاشر :أراد أن يقابل مبالغتهم فى الإساءة بمبالغة فى الإحسان إليهم[1].

قوله ﴿ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ سبق الحديث عن «لما » وقوله ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ للعلماء فى معنى هذا القول رأيان:

١- منع منا الكيل فى المستقبل وبعد هذه المرة وهذا إشارة لقول يوسف فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون.

٢- منع منا الكيل إشارة إلى منعه بغير بنيامين.

والذى يرجح الرأى الثانى ما يأتى:

١- حمل مُنع على الفعل الماضى كما هو لفظاً ومعنى.

٢- قول الإخوة لأبيهم ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ .

٣- هناك قراءة تؤيد هذا الاتجاه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا تَكْتَلْ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى بتصريف جـ ٥ ، ص١٤٤ ، ١٤٥.

قوله ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الفاء واقعة في جواب شرط محذوف والتقدير أنه إذا كان الأمر كذلك فأرسل معنا أخانا، نكتل فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر «أرسله» وهذا يدفع رأى من يقول إن أخا يوسف هو نكتل فلو كان كذلك لنصب بدلاً من أخانا. والمعنى فأرسل معنا أخانا نكتل — أى نأخذ الطعام — ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ هذه الجملة مستأنفة معللة لإرساله أخاهم وهى مؤكدة بإن واسمية الجملة واللام والمعنى وإنا لصائنون راعون له.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ المراد بالاستفهام هو الإنكار، و«هل» بمعنى ما النافية، والكاف فى «كما» بمعنى مثل وهى صفة لمصدر محذوف والتقدير: هل آمنكم عليه مثل ائتمانكم على يوسف والمعنى كيف آمنكم على ولدى بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم وأنكم ذكرتم مثل هذا فى شأن يوسف حيث قلتم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾فلما لم يحصل الحفظ هناك فكيف آمنكم هنا ﴿فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا استسلام من يعقوب فحفظ الله بنيامين خير من حفظكم له وحافظاً تمييز وقرئ فالله خير حفظاً ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله ﴿فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى هو ذو رحمة واسعة فأرجو منه حفظه وأن لا يجمع علىَّ مصيبتين. قال كعب الأحبار: (لما قال يعقوب ذلك، قال له: لأردن عليك كليهما حيث توكلت علىَّ واستحفظتنى عليه) [1].

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ولما فتحوا متاعهم بحضرة أبيهم ﴿وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ﴾ ثمن الميرة ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ عادت إليهم مع

---

(١) الصاوى على الجلالين جـ ٢ ، ص٢١٢.

الطعام فلم يدفعوا ثمناً. ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ «ما» استفهامية والمعنى أى شئ نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا. و﴿هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ورد أنهم قد ذكروا ليعقوب إحسان ملك مصر إليهم وحثوا يعقوب على إرساله بنيامين معهم فلما وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا أى شئ نطلب بعد هذا الإكرام أوفى لنا الكيل ورد لنا الثمن لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته فقال لهم يعقوب إذا رجعتم إلى مصر فأقرئوه منى السلام وقولوا له إن أبانا يصلى عليك ويدعو لك بما أوليتنا) [1].

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نأتى بالميرة لهم وهى الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ حتى يصل إلى مصر ويعود منها ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا بنيامين الذى لم يذهب معنا هذه المرة ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ على الملك لسخائه.

معنى الآيات

وقال يوسف لعبيده وخدامه اجعلوا ثمن الطعام الذى أتوا به للشراء فى أوعيتهم مع الطعام على رجاء أن يعرفوا إذا عادوا إلى أهلهم كى يرجعوا مرة أخرى وترك الإخوة أخاهم يوسف دون علمهم أنه هو فلما عادوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع من الكيل فأرسل معنا أخانا حتى نأتى بالطعام مرة أخرى فلقد أنذرنا العزيز بمنعه الطعام عنا إذ لم يذهب أخونا ليكتل معنا فإنا له لحافظون فرد يعقوب بقوله ما آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على يوسف من قبل فأمرى مفوض إلى الله فهو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين وحين فتحوا متاعهم بحضور أبيهم

(١) المرجع السابق جـ ٢ ، ص٢١٢.

قالوا يا أبانا أى شئ نطلبه من إكرام العزيز لنا فهذا ثمن الطعام رجع معنا فى وسط الطعام فإذا عدنا إلى مصر مرة أخرى سنحفظ أخانا ونزداد كيل بعير له ذلك كيل يسير على الملك لسخائه وكرمه.

شرط يعقوب لإرسال ابنه ووصيته لأبنائه

قال تعالى:

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

لقد انتهت الآيات السابقة بإقناع إخوة يوسف أباهم بإرسال بنيامين إلى مصر فهم يحفظونه وتزداد الأسرة كيل بعير بذهابه وفى هذه الآيات يبين الله تعالى شرط يعقوب فى إرساله وهو أخذ الميثاق على الإخوة. وحقق الأولاد شرط الأب.

المباحث العربية

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ قال يعقوب لن أبعثه معكم إلا أن تعطونى فالنفى ليس على التأبيد ولكنه إلى غاية وهى إعطاء الميثاق ﴿مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ الموثق مصدر بمعنى الثقة ومعناها العهد الذى يوثق فهو مصدر بمعنى المفعول ويكون المعنى: لن ارسله معكم حتى تعطونى عهداً موثقاً به ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أى عهداً موثوقاً به بسبب تأكد بإشهاد الله والقسم بالله عليه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ اللام واقعة فى واجب قسم محذوف تقديره حتى تعطونى موثقاً من الله تحلفون بالله وتقولون والله لتأتنَّنى به. ومعنى ﴿إِلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ معناه الهلاك. العرب يقولون أحيط بفلان إذا قرب هلاكه، كما قال تعالى ﴿وأحِيطَ بثَمَرِهِ﴾ وقال تعالى ﴿وظنوا أنهم أحِيطَ بهم﴾.

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ فلما أعطاه الأبناء عهدهم قال يعقوب: الله على ما نقول شهيد. المراد بالوكيل الشهيد وعبر بالوكيل دون الشهيد لأن الشهيد موكول إليه العهد فإن وفوا جازاهم بأحسن الجزاء وإن غدروا كافأهم بأعظم العقوبات.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾
لقد أوصاهم يعقوب وصية وهى أنه نهاهم أن يدخلوا جميعاً من باب واحد وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، ولقد اختلف العلماء فى وصية يعقوب لأولاده:

قال جمهور المفسرين: إنه خاف عليهم من العين وقالوا إن العين حق وأقام الفخر الرازى أدلة كثيرة لهذا الاتجاه منها:

الأول : إطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك – أى العين –.

الثانى : ما روى أن رسول الله ﷺ كان يعوِّذ الحسن والحسين فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة. ويقول هكذا كان يعوِّذ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق صلوات الله عليهم.

والثالث : ما روى عن عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافىً فقال: إن جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال باسم الله أرقيك من كل شئ يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال فأفقت.

و الرابع : روى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلماناً بيضاً فقالت أسماء يا رسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم.

والخامس : دخل رسول الله ﷺ بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا يا رسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين.

والسادس : قوله عليه الصلاة والسلام: العين حق ولو كان شئ يسبق القدر لسبقت العين القدر.

والسابع : قالت عائشة رضى الله عنها كان يؤمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه العين الذى أصيب بالعين)[1].

وقال فريق من العلماء إننا ننكر هذا المعنى وهو أن للعين تأثيراً وعلى رأس هؤلاء أبو على الجبائى وقال عن سبب وصية يعقوب لبنيه إن أولاد يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم فقال لا تدخلوا تلك المدينة من باب واحد على ما أنتم عليه من الهيئة والعدد فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال: لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم. وقال آخرون: إن يعقوب كان عالماً بأن عزيز مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له فى إظهار ذلك فلما بعث أبناءه إليه قال: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف وقت الخلوة. وفسروا قوله ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ بأنه يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم والإنسان مأمور بالاعتقاد بأنه لا يصل إلا ما قدره الله. وقوله ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ والمعنى ما أدفع عنكم بقولى ذلك ﴿ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لا أدفع به ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أى من قضاء الله ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من مزيدة للتوكيد وشئ مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. أى لا أدفع شيئاً قدره الله عليكم. ولقد أوصاهم شفقة ورأفة بهم. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ ما الحكم إلا لله وهذا أسلوب قصر ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ووثقت به ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فليعتمد المعتمدون عليه.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ، ص١٤٦ ، ١٤٧.

لطيفة: لِمَ أمر يعقوب بنيه هذه المرة بتلك الوصية دون المرة السابقة؟ ويمكن الجواب على ذلك بأمرين:

الأول: إن بنيامين سيذهب معهم وهو عزيز عليه ويتسلّى به عن يوسف فخاف عليهم من أجل كونه معهم.

الثاني: أنهم اشتهروا في مصر بأنهم أولاد رجل واحد وفيهم [illegible] النبوة والشهامة والجمال سيما وقد أصبحوا بمنزلة بخلاف المرة الأولى.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أى لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها أظهرها وهى إرادة دفع العين عنهم وهذا من شفقته ورحمته بهم.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ الهاء اسم إنَّ ضمير يعود على يعقوب واللام للتوكيد والتقدير وإن يعقوب لصاحب علم ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ «ما» يجوز أن تكون مصدرية، وإنه لذو علم لتعليمنا إياه والضمير المفعول به عائد على يعقوب. ويجوز أن تكون «ما» بمعنى الذى والمعنى «و إنه لذو علم للذى علمناه». ومعنى العلم أى الحفظ والمعنى لذو حفظ لما علمناه. ويجوز أن يكون بمعنى لذو علم بفوائد ما علمناه.

﴿وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثر الناس أى الكفار ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يدركون إلهام الله لأصفيائه. قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ ﴾ أى دخلوا عليه فى محل حكمه ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أى ضم يوسف إليه أخاه بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الفاء واقعة فى جواب شرط

محذوف والتقدير إنى أنا أخوك وإن عرفت ذلك فلا تحـزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ما يجوز أن تكون مصدرية والباء للسببية والمعنى فلا تحزن بسبب عملهم ويجوز أن تكون موصولة والمعنى فلا تحزن بسبب الذى كـانوا يعملونـه. وعبَّـر بالمضـارع للدلالة على التجدد والحدوث.

معنى الآيات

قال يعقوب لن أبعثه معكم حتى تقسموا لى بالله قسماً يربطكم أن تردوا علىَّ ولدى إلا إذا غلبتم على أمركم غلباً لا حيلة لكم فيه. فأقسـموا وبعـد هـذا العهـد والموثق راح يوصيهم بوصية فى رحلتهم إلى مصر فنهاهم عـن دخـولهم مـن بـاب واحد وأمرهم أن يدخلوا من أبواب مختلفة. ثم قال لهم وما أدفع عنكم قضاء الله ما الحكم إلا لله فلا مفـر مـن قضـائه وبـالله وثقـت وعليـه اعتمـدت وعليـه فليتوكـل المتوكلون. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يدفع عنهم هذا الفعل شيئاً من قدر الله لكن حاجة فى نفس يعقوب أظهرها لأولاده.

و إن يعقوب صاحب حفظ لمـا علمـه الله ولكـن الكفـار لا يـدركون إلهـام الله لرسله. ولما وصلوا إلى مصر ودخلوا على محل حكم يوسف ضم إليه أخاه وقال لـه إنى أنا أخوك فلا تحزن من الذى يعملونه.

حيلة يوسف لضم أخيه

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

انتهت الآيات السابقة بدخول إخوة يوسف عليه ومعهم أخوهم من أبيهم وانفرد يوسف ببنيامين وأخبره أنه أخوه. وفى هذه الآيات يبدأ يوسف بحيلته حتى يضم أخاه إليه ثم تأتى بقية الأسرة وعلى رأسها يعقوب عليه السلام وأخبر بنيامين بذلك.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ الفاء عاطفة، عطفت هذا الحدث على الحدث السابق وهو ذهابهم ورجوعهم بأخيهم فهو ترتيب أحداث. ولقد سبق معنى هذه الجملة ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية هي صاع من ذهب مرصّع بالجواهر وهى كأس الملك جعلها فى رحل بنيامين وبعد أن تركوا مجلس يوسف وخرجوا وبدأو السير والرحيل. قيل إنهم وصلوا بلبيس بالشرقية ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ والتعبير بثم يدل على التراخى وأنهم قطعوا مسافة طويلة بعد انفصالهم عن مجلس يوسف. ومعنى ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ والعير بكسر العين هى الإبل التى تحمل الميرة ثم غلب على كل قافلة وسميت بذلك لأنها تعير أى تذهب وتجئ والمراد يا أصحاب العير ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ .

لطيفة:

لم يسرق إخوة يوسف ونودى عليهم ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ فإن كان هذا النداء بأمر يوسف فكيف يليق به وهو الرسول الحق أن يتهم قوماً هم بُرآء؟ وإن لم يكن النداء بأمره فلماذا لم يظهر براءتهم من تهمة السرقة؟ والجواب عن ذلك من وجوه:

(الأول: أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له إنى أريد أن أبقيك ههنا ولا سبيل إلىَّ إلا بهذه الحيلة فإن رضيت بها فالأمر لك فرضى بأن يقال فى حقه ذلك وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام.

الثانى : أن المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم أظهروا هذا الكلام والمعاريض لا تكون إلا كذلك.

و الثالث: أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير يخرج أن يكون كذباً.

والرابع : ليس فى القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب إلى ظاهر الحال أنهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وما وجدوها وما كان هناك أحد إلا هم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها) [1].

قوله تعالى ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم ﴾ هذه الجملة فى محل نصب حال ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ أى شئ ضاع منكم ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ سبق أن كان المنادى مفرداً ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ ثم قال الله ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ فالـ... نادى أولاً واحد. وحينما ردوا بقولهم «قالوا» فكان المنادى وأصحابه ﴿ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾ أى الصاع وهو آلة كيل وإنما اتخذوا آلة كهذه ليدل على عزة ما يكال به فى ذلك الوقت وفيه لغتان الصاع والصواع فألف اللغة الأولى منقلبة عن واو. قوله ﴿ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أى وحمل بعير من الطعام للذى يدل على السارق. وعبَّر بالماضى لتحقق مجئ الصواع من أمتعتهم ﴿ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴾ قائل هذا هو المؤذن وقوله ﴿وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ وأنا به كفيل أى ضامن. ولقد جعل جعلاً له وهى الأجرة على إحضار الصواع وضمَّنها للذى يدل على السارق.

﴿ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ، ص١٥٠.

أقسم إخوة يوسف بالله وآثروا القسم بالتاء دون الواو لأن القسم بها يكون فيه التعجب غالباً كأنهم عجبوا من رميهم بهذا الأمر العظيم. ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف تأكيد للقسم الأول ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾ «ما» نافية واللام لام التعليل والمراد بالأرض أرض مصر ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ «ما » نافية وسارقين جمع سارق وهو نكرة ووقعت فى سياق النفى فأفادت العموم والمعنى وما نسرق أى شئ صغر أو كبر. ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ واو الجماعة فى قالوا يعود على المؤذن وأصحابه. والفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير قالوا وإن عرفتم أن هناك سرقة فما جزاؤه والضمير فى «جزاؤه» يعود على السارق المستفاد من السياق ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ إن حرف شرط يجزم فعلين الأول فعل الشرط وهو «كان» فهو مبنى على السكون فى محل جزم والتاء اسمها وكاذبين خبرها. والكذب مخالفة الخبر للواقع. وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنتم كاذبين فى نفيكم للسرقة فما جزاء السارق إن وجد فيكم.

﴿ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ الضمير فى قالوا يعود على إخوة يوسف القائلين ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ «جزاؤه» مبتدأ والضمير المضاف إليه يعود على المسروق ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ﴾ خبر المبتدأ ومعنى الجملة من وجد فى رحله يسترقه ومن اسم موصول ووجد صلته. ﴿ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ الضمير المبتدأ يعود على السارق «جزاؤه» خبر المبتدأ أو الضمير يعود على المسروق. وهذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى أى أن السارق يُسترَق ويصير عبداً وكانت هذه سنة آل يعقوب والكاف بمعنى مثل ومعنى ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ ومثل ذلك الجزاء أى استرقاق السارق نجزى

الظالمين السارقين. فردوا ورجعوا من حيث أدركهم المؤذن وأصحابه إلى يوسف وأصحابه لتفتيش أوعيتهم بحضرته ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ ففتشها والفاء عاطفة ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾.

قال قتادة: (ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر فى وعاء إلا استغفر الله مما قذفهم به حتىلم يبق إلا رحل بنيامين قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً. فقال إخوة يوسف والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا فلما فتحوا متاعه وجدوا الصواع فيه) [1].

﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ الضمير الفاعل يعود على يوسف ولما كان هو الآمر للخدم أسند الاستخراج إليه والضمير المنصوب يعود على الصواع ففيه التذكير والتأنيث. وقيل يعود على السقاية ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ومثل ذلك الكيد ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ علمناه الاحتيال فى أخذ أخيه ﴿ مَا كَانَ ﴾ يوسف ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رقيقاً من جزاء السرقة ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ فى طاعة الملك وحكمه لأن جزاء السارق الضرب فى مصر وليس الاسترقاق فما توصل إلى أخذ أخيه إلا بشريعة أبيه والتى قالها إخوته ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إلا بمشيئة الله بإلهامه سؤال إخوته وإجابتهم بسنتهم ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاءُ ﴾ أى يرفع الله درجات الذى أراد الله رفع درجاته. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ خبر مقدم و﴿ عَلِيمٌ﴾ مبتدأ مؤخر. والمعنى وفوق كل ذى علم من المخلوقين عليم أى أعلم منه حتى ينتهى إلى الله تعالى.

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص٤٧٠.

معنى الآيات

بدأت هذه الآيات بمشهد مثير حافل بالحركات والانفعالات والمفاجآت هذا المشهد يصوِّره القرآن بعرض حيٍّ أخَّاذ وراء الستار. فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك وهو من ذهب في الرَّحل المخصص لأخيه ثـم تمضـي العـير وتسير فـي طريقها قاصدة الشام ولما سارت مسافة طويلة تتبعها جماعة مـن مصـر ثـم ينـادي عليهم مناد بصوت مرتفع ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ويرتاع إخوة يوسف لهـذا النداء الذي يتهمهم فيعـودون أدراجهـم يتبينـون الأمـر المريـب. ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ فرد عليهم الغلمان قالوا نفقد صواع الملك ولمن دلَّ على سارقه حمل بعير وقال المؤذن وأنا به كفيل. فأقسموا أنهم ما أتوا ليفسدوا في هـذا البلـد ونفوا السرقة عنهم. قال الغلمان: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين فـي نفـيكم السـرقة. قالوا جزاؤه الاسترقاق فهو جزاؤه فعادوا وحضروا مجلس يوسف فبـدأ التفتـيش بأوعيتهم قبل تفتيش وعاء أخيه ثم استخرج السقاية مـن وعـاء أخيـه بيـد أن الله ألهم يوسف تلك الطريقة لضم أخيه إليه. ثم يقول الله تعـالى ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

إتهام يوسف بالسرقة

قال تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

لما أخرج يوسف صواع الملك من رحل أخيه وثبتت سرقة أخيه على زعم يوسف ورجاله. ووقف إخوة بنيامين الحالفين على أنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض وما كانوا سارقين.فلما أخرجوا الصواع من رحل أخيهم دهشوا من هول المفاجأة العنيفة لأنهم موقنون ببراءتهم من السرقة. متحدون كل من يذكر لهم شيئاً. فانفعلوا وعصف بهم انفعال الغضب على بنيامين ويوسف فرموا يوسف بالسرقة. ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾.

المباحث العربية

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ أتوا بإن الشرطية وهى مفيدة للشك لأنهم يثقون من عدم سرقته فهم أبناء نبى. وأتوا بفعل المضارع «يسرق» مع أن السرقة وقعت فى الماضى قبل كلامهم. لحكاية حال ماضيه. وجملة ﴿ فَقَدْ سَرَقَ﴾ جواب الشرط. والمراد بالأخ هو يوسف وأتوا به نكرة لقصدهم التقليل والتحقير.

والضمير المنصوب فى ﴿ فَأَسَرَّهَا﴾ يعود على كلمتهم ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وقوله ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أى لم يظهرها لهم. ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ قال ذلك فى نفسه والمعنى: أنتم شر منزلة من يوسف وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه فليس فى كون الله شئ هو عالم به وغيره هو أعلم به فمعنى أفعل التفضيل «الله عالم» وقوله ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ بما تذكرون من أمر أخيه الذى اتهمتموه بالسرقة.

معنى الآيات

قال أبناء يعقوب منفعلين من هول المفاجأة إن سرق بنيامين فلقد سار على درب أخيه الشقيق يوسف فقد سرق من قبله فأسر الكلمة يوسف فى قلبه وعقله ووجدانه ولم يظهرها لهم. وقال فى نفسه أنتم شر منزلة من يوسف وأخيه لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم وحاولتم قتله وألقيتموه فى الجب. والله عليم بما تذكرون.

لطيفة: ما الذى سرقه يوسف؟

الجواب: يوسف لم يسرق شيئاً بعد بلوغه حتى يعاقب عليه أو يلام ولكن الذى فعله يدل على نفسه المحبة للخير والطاعة والعلماء ساقوا أقوالاً فى المسروق:

القول الأول: كان قد سرق من أبى أمه صنماً كان يعبده فسرقه يوسف وحطمه لئلا يعبده.

القول الثانى: أنه جاءهم سائل فأخذ بيضة وتصدق بها على السائل، وقيل أخذ دجاجة وأعطاها السائل.

القول الثالث: كان يخفى طعام المائدة ويطعم به الفقراء.

كل ذلك مدح فى يوسف وإن كان فى نظر إخوته سرقة وقدح. وقيل لم يسرق أصلاً ولكنها تهمة ألصقها له إخوته الذين أعماهم الحقد عليه وشرعوا فى قتله.

رأى بعيد:

ساق المفسرون روايات متعددة فى هذا الأمر وهى التى سقناها ومما ساقه المفسرون وليس مقبولاً هذه الرواية:

(أن عمته حضنته بعد موت أمه فأحبته حباً شديداً فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه فأحبه فقال لأخته يا أختاه سلمى إلىّ يوسف فوالله ما أقدر أن يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا أعطيكه فقال: والله ما أنا بتاركه عندك فقالت دعه عندى أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت إلى منطقة كانت لإسحاق عليه السلام وكانوا يتوارثونها بالكبر وكانت أكبر أولاد إسحاق وكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة إسحاق ففتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف فقال يعقوب إن كان فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها حتى ماتت)[1].

وهذا الرأى من الإسرائيليات غير المقبولة لما يأتى:

أولاً: لأن العمة بنت نبى، وأخلاقها لا تسمح بأن تلصق تهمة بطفل برئ.

ثانياً: إن يوسف كان صغيراً ولم يكلف بعد فكيف يصير عبداً لها بعد هذه السرقة.

ثالثًا: هذه من الإسرائيليات. والله أعلم.

تنفيذ العهد الذى أخذه يعقوب على أبنائه

قال تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ

(١) الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص٢١٤.

إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

في الآيات السابقة حديث عن وجود صواع الملك في رحل بنيامين وكان هذا الموقف كفيلاً بأن يكون في سمط السارقين. وكانت سنَّة آل يعقوب إن سرق السارق فإنه يُسْتَرَقُّ ويصير رقيقاً فطُبِّقَ على بنيامين ودخل دائرة العبودية وبين الأبناء وأبيهم عهد ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ فقالوا ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ إلى آخر الآيات.

المباحث العربية

﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ المراد بالعزيز يوسف عليه السلام ﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا ﴾ هو يعقوب. ومعنى «الشيخ» هو الذى استبانت فيه السن وظهر عليه

الشيب وقيل هو خمسين إلى آخره. وقيل هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره والجمع أشياخ وشيخان وشيوخ وشِيَخَة ومشيخة بفتح الميم وكسرها[1].

﴿ كَبِيرًا ﴾ صفة لشيخ ومعناها إما أنها تؤكد كلمة ﴿ شَيْخًا ﴾ أو أنها بمعنى عظيم القدر لأنه نبي من الأنبياء. ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى أفعالك وأقوالك. ولا يقدح ما فعله يوسف بوضع الصاع فى رحل أخيه وبندائه لهم ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ لأنه فعل ذلك بوحى من الله.

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ قوله تعالى ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مصدر منصوب بفعل محذوف والتقدير نعوذ بالله والمعنى نتعوذ بالله تعوذاً أى نلتجئ إلى الله.

﴿ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ المراد بالمتاع: الصواع. وقال يوسف ﴿ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ ولم يقل إلا من سرق: تحـرُّزاً من الكذب ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ إذن: جواب وجزاء لشرط محذوف على سبيل الإيجاز وتقديره إن أخذنا غيره إذن لظالمون. والظلم هو مجاوزة الحد. ولا يخفى ما فى الآية من مؤكدات:

١- إنَّ. ٢- اسمية الجملة ٣- اللام فى «الظالمون».

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾، ﴿ اسْتَيْأَسُواْ ﴾ أى يئسوا. والسين والتاء مزيدتان للتوكيد ﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ اعتزلوا المجلس يتناجون وهو الحديث فى سرية، ونجيا: حال.

---

(١) أنظر لسان العرب جـ ٤ ص٢٣٧٣ مادة «شيخ».

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ ذكر المفسرون أنه: سناروبيل أو رأيا يهوذا ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾،

﴿ أَلَمْ ﴾ لها معنيان:

١- التنبيه والتذكير: كما فى هذه الآية وغيرها كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1].

٢- التعجب من أمر فيه غرابة كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾[2].

وقوله تعالى ﴿ مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ العهد الذى سبق ذكره. ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ و«ما» يجوز أن تكون زائدة للتوكيد ويجوز أن تكون مصدرية. والمعنى: وتفريطكم فى أمر يوسف كائن من قبل تفريطكم فى بنيامين. أو من قبل أخذكم العهد فى شأن بنيامين.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾ الفاء واقعة فى جواب شرط محذوف والتقدير «إن عرفتم وتذكرتم الموثق فلن أبرح» ومعنى أبرح: أفارق وهى تامة وليست ناقصة وفاعلها ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا والأرض مفعول به، والمراد بالأرض أرض مصر.

---

(١) سورة لقمان آية ٢٠.

(٢) سورة النور آية ٤٣.

﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ فى العودة إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بخلاص أخى.
وفى نصب هذا الفعل وجهان:

الأول: العطف على الفعل «يأذن» فهو منصوب بحتى.
الثاني: أنه منصوب بإضمار «أن».

﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى وهو أعدل الحاكمين.

﴿ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ ارجعوا وعودوا إلى أبيكم ﴿ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ نسبوه للسرقة مع أنه لم يسرق حقيقة لأنهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاعه فظنوه سرق.

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ أى وما شهدنا عليه إلا بيقيننا من مشاهدة الصاع فى رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ أى لما غاب عنا وقت إعطاء الموثق ﴿ حَافِظِينَ ﴾ أى ما كنا واعين لما يقع مستقبلاً من أنه يسرق. ولو علمنا ذلك لم نأخذ الموثق على أنفسنا.

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾، سؤال القرية والعير يحتمل ثلاثة أوجه:

١- أن الكلام على حذف مضاف والتقدير واسأل أهل القرية وأهل العير وهو مجاز شائع.
٢- أنه مجاز ولكنه من باب إطلاق اسم المحل على الحالّ للمجاورة كالزاوية.

٣- أنه حقيقة لا مجاز فيه وذلك أنه يجوز أن يسأل القرية نفسها والإبل فتجيبه لأنه نبى يجوز أن ينطق له الجماد والحيوان[1] والمراد بالقرية مصر والعير كانت من قوم كنعان.

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا وفيما نقلناه لك. فرجعوا إلى أبيهم فأخبروه.

معنى الآيات

قال أبناء يعقوب ليوسف ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أى بدلاً منه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فى أقوالهم وأفعالهم ولكن يوسف أبى لأنه يريد أن يُلْقى عليهم درساً ويفاجأهم بشئ يعده لهم ولأبيهم ليكون وقعه على النفس أعمق وأشد أثراً فى النفوس. وبين رفضه فى أخذ أخيه مكان أخيه بنيامين. فقال معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق فقال: معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ وما نريد أن نكون ظالمين وكانت هذه الكلمة الأخيرة فى الموقف وعرفوا أن لا جدوى بعدها فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج أمام أبيهم حين يرجعون إليه دون أن يأخذوا أخاهم معهم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ مذكراً لهم الموثق الذى أخذه أبوهم عليهم وقال لن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بالعودة أو يحكم الله لى بخلاص بنيامين فهو أعدل الحاكمين. وقال لهم ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه

---

(١) أنظر الدر المصون جـ ٦ ص٥٤٤.

صراحة أن ابنه سرق فأخذ بسرقته وهذا ما شاهدوه وعلموه يقيناً وما كان وراء هذا الظاهر من البراءة والحيلة فهم لا يعلمونه وهم غير حافظين لما غاب عنهم. وإن كان الوالد فى شك من قولهم فليسأل أهل مصر وأصحاب العير التى كانوا فيها. ويطوى السياق عودتهم إلى أبيهم ويبدأ فى تصوير مشهد أبيهم المفجوع وقد ألقوا على مسامعه النبأ الفظيع فرد رداً قصيراً شجياً وجيعاً.

* * *

قال تعالى:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

مناسبة الآيات بما قبلها:

انتهت الآيات السابقة بقول الأبناء ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي

﴿ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فأدرك بفطرته أن ابنه لا يسرق وهناك حيلة مدبرة لولده كحيلة يوسف فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ .

المباحث العربية

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ «بل» حرف يفيد الإضراب وهو هنا إضراب إبطالى. ولابد له من كلام متقدِّم عليه يضرب والتقدير: ليس الأمر كما ذكرتم حقيقة بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً. وهذا الأمر أنه خيلت أنفسكم أنه سرق وما سرق. ومعنى ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ زينت.

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ صبر: خبر لمبتدأ محذوف تقديره فصبرى صبر جميل، وجميل صفة للخبر. والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا جزع. ولا يتحدث المبتلَى بمصيبته ولايزكى نفسه.

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ ﴿ عَسَى ﴾ فعل جامد لا يتصرف ومن ثم ادعى قومٌ أنه حرف: ومعناه: الترجى فى المحبوب والإشفاق فى المكروه. وروى عن ابن عباس قال: كل «عسى» فى القرآن فهى واجبة. وقال الشافعى: يقال: عسى من الله واجبة)[1]. فهى هنا للترجى فهو يرجو من الله أن يرد عليه أبناءه. وأتى بضمير الجمع ﴿ بِهِمْ ﴾ وأكده بقوله ﴿ جَمِيعًا ﴾ لأنه أراد يوسف وبنيامين وابنه الذى قال ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص٢٤١ بتصريف.

و قال يعقوب هذه المقالة: إما لأنه لما طال حزنه واشتد كربه وضاق صدره وقلّت حيلته علم أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً عن قريب فقال: ذلك على سبيل حسن الظن بالله. وإما أن يعقوب علم بما جرى عليه وعلى أبنائه من أول الأمر من التأمل فى رؤيا يوسف. وإما بوحى من الله وقت أن أخبروه بما وقع لبنيامين يقول الشيخ سيد قطب فى سبب هذا القول الذى قاله يعقوب: (هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء فى الله. والاتصال الوثيق به والشعور بوجوده ورحمته ذلك الشعور الذى يتجلى فى قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذى تلمسه الأيدى وتراه الأبصار) [1].

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مؤكدة بمؤكدات متعددة:

١- إنّ ٢- اسمية الجملة ٣- ضمير الفصل «هو».

٤- تعريف الطرفين اسم إنّ وخبرها.

وفى الجملة أسلوب قصر بتعريف الطرفين. وصيغتا مبالغة فى العليم والحكيم: على وزن فعيل.

والمعنى إنه العليم بحالى وحال خلقه، الحكيم فى صنعه وما يقدّره. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم وقال ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ الأسف: هو الحزن (والألف منقلبة عن ياء المتكلم. وإنما قلبت ألفاً لأن الصوت معها أتم ونداؤه على سبيل المجاز كأنه قال: هذا أوانك فاحضر. وقيل هذه ألف الندبة

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص٢٠٢٥.

وحذفت هاء السكت وصلاً. قال الزمخشرى: والتجانس بين لفظتى الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمَّل فيملُح ويبدع ونحوه ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾، ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴾ ﴿مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ قلت ويسمى هذا النوع «تجنيس التصريف وهو أن تشترك الكلمتان فى لفظ ويفرَّق بينهما بحرف ليس فى الأخرى وقد تقدم) [1].

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ أى عمى وفى سبب بياض عينه وجهان:

١- لما قال سابقاً ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ غلبه البكاء وعند البكاء يكثر الدمع فى العين فتصير كأنها بيضاء من ذلك الماء.

٢- أن المراد ببياض عينه العمى وهذا قول مقاتل قال (لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله عنه بقميص يوسف وقوله ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾)[2].

ورغم أن الرازى مال إلى الوجه الأول قائلاً (و الدليل على صحة هذا القول – الأول – أن تأثير الحزن فى غلبة البكاء لا فى حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل فكان ما ذكرناه أولى) [3].

والذى أراه أن الرأى الثانى هو الأولى بالقبول لما يأتى:-

---

(١) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون جـ ٦ ص٥٤٥

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٥٨.

(٣) المرجع السابق.

إن المراد بالبياض هو العمى بدليل قوله ﴿ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾ والمعنى استوى سوادها ببياضها فصارت كلها بيضاء وبذلك يذهب إبصارها فتكون قد عميت ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى عن يوسف ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ فلو لم يكن قد عمى فلا معنى لقول يوسف ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ ولا معنى لقوله ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أى يرتد بصيراً بعد أن فقده.

قوله ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ كظيم هنا بمعنى ممسك على حزنه فلا يشكو للناس بل يشكوه لربه فمعنى كظيم «أى ممسك حزنه على نفسه».

قوله تعالى ﴿ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ هذا قسم من الأبناء ﴿ تَالله ﴾ والأصل فى القسم أن يكون بالتاء ﴿تَفْتَأُ﴾ أى لا تزال إنما قدرت «لا» قبل «تفتأ» عند التفسير (لأن القسم المثبت جوابه مؤكد بالنون أو اللام عند الكوفيين أو بهما عند البصريين فلما رأينا الجواب خالياً منهما علمنا أن القسم على النفى بمعنى أن جوابه منفى لا مثبت فلو قيل وا لله أحبك كان المراد لا أحبك وهو من قبيل التورية ومن ذلك إذا قال والله أجيئك غداً فيحنث بالمجئ بخلاف ما إذا قال لأجيئك فيحنث بعدمه) [1].

لماذا حلف الأبناء؟ وكيف يحلفون على شئ فى نفس يعقوب وهو داخلى ولا يعلمون حقيقته؟

الجواب: إنهم حلفوا لأبيهم تسلية له على ما نزل به من الحزن العظيم. وحلفوا على أمر داخلىلأنهم شعروا بآثار الحزن على وجه أبيهم وجسده فحلفوا لغلبة ظنهم وهو بمنزلة اليقين فهو من لغو اليمين الذى لا يؤاخذ به العبد.

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص٢١٦.

﴿تذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أى لا تزال تذكر يوسف إلى أن تشرف على الهلاك فالحرض هو الإشراف على الهلاك وسمى بالمصدر للمبالغة. ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أو تكون من الموتى. ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الحزن هو ما يصيب النفس من الهم والغم. والبث: أشد الحزن.

و لقد أورد المفسرون روايات أظنها إسرائيليات حين قال يعقوب هذا القول السابق ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (هذه المقالة قالها لجبريل عليه السلام لما ورد أنه كان ليعقوب شخص مؤاخ له فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك وما الذى قوس ظهرك؟ قال أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال له يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول أما تستحي أن تشكو إلى غيرى فقال: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل الله أعلم بما تشكو وإنما عوتب يعقوب بهذا لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين)[1].

وهذا الذى ساقوه مردود بما يأتى:-

١- أن المدة التى خرج فيها أبناء يعقوب لمجئ الطعام من مصر وعودة كثير من الأبناء إلى أبيهم مرة أخرى وإخبارهم بسرقة بنيامين وعودهم إلى مصر مرة أخرى هذه المدة ليست سنوات حتى تقوّس ظهر يعقوب.

٢- أن يعقوب نبى فهو يعرف إطار العلاقة بينه وبين ربه وآدابها فلا يشكو الله إلى غير الله. فلا يليق بنبى أن يفعل ذلك.

---

(١) المرجع السابق.

٣- السياق لا يدل على أنه قال هذا القول لأخ مؤاخ بل القول قيل وهو بين أبنائه وفي جو من الضيق والكرب ولم يملك إلا أن يتجه إلى الله بشكواه، قال تعالى ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١)

فالسباق واللحاق يدلان على أن الشكوى كانت بينه وبين الله وحوله أبناؤه وليس كما أورده المفسرون.

قوله ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ قول يعقوب هذا يدل على أنه علم من الله أن يوسف حي من طريقين :-

١- أنه علم من طريق الوحي فلذلك قال ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ﴾.
٢- أنه علم أنه حي من تأويل الرؤيا التى رآها يوسف فى صغره وطلب منه يعقوب إخفاءها على إخوته.

و لما قال لهم هذا القول أمرهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه وأن يطلبوا خبرهما. قوله ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ﴾ ذكر المفسرون سبب قول يعقوب هذا القول:

---

(١) سورة يوسف آية ٨٤ – ٨٧

(أن أولاده لما أخبروه بسيرة ملك مصر وكمال حاله فى جميع أقواله وأفعاله أحست نفس يعقوب وطمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾)[1]. والتحسس هو طلب الخبر بالحاسة، وغالباً ما يكون فى الخير. والتجسس بمعناه وغالباً ما يكون فى الشر. والمعنى: اذهبوا فاطلبوا خبر يوسف وأخيه. ووردت روايات أظن أنها من الإسرائيليات لما فيها من أن الذبيح إسحاق. ولقد دأبت الإسرائيليات على إلصاق شرف الذبح إلى إسحاق بدلاً من إسماعيل. ﴿ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ هو القنوط وقطع الأمل والرجاء و﴿مِن رَّوْحِ اللّهِ ﴾ أى من رحمته.

﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أى إن المؤمن عند البلاء يصبر ويحتسب منتظراً فرج الله فينال بذلك خيراً ويشكر ويحمد عند الرخاء والسراء والكافر بخلاف ذلك.

أو المعنى: إنه لا ييأس من الأمل فى الله إلا القوم الكافرون. أما المؤمنون فإنهم يثقون فى الله ولا تنقطع آمالهم فيه.

معنى الآيات

يطوى السياق الطريق بالأبناء حتى يقفوا أمام أبيهم المفجوع وقد أفضوا إليه بنبأ سرقة أخيهم وإذا أردت أن تتحقق يا أبانا فاسأل أهل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون. ورد الأب الكبير جريح القلب: قال بل زينت لكم أنفسكم أمراً ما يخفى علىَّ فصبر جميل وهذه الكلمة قالها يوم فقد

(١) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٢ ص ٢١٦، ٢١٧.

يوسف بيد أنه أضاف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه والابن الذى تخلف فى مصر لليمين الذى قطعه على نفسه أمام أبيه وأبى أن يترك أرض مصر. فالله هو العليم بكل شئ الحكيم فى أفعاله. ثم تولى عنهم مؤثراً الانفراد بنفسه طاوياً على مصيبته فهو الوحيد الذى أحرقته بلهيبها، لا تشاركه قلوب أبنائه ولا تتجاوب معه عقولهم. ويندب فجيعته التى لم تنسها السنون فقال كاظماً حزنه متجلداً ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ ورد الأبناء بكلمة دلت على خلو قلوبهم من الرحمة بأبيهم تالله تظل تذكر يوسف ويهدك الحزن عليه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك أسىً عليه بلا جدوى وهو ميئوس من وجوده ولن يعود. ويرد عليهم أبوهم بأن يتركوه لربه فهو لا يشكو لأحد من خلقه بل قال كلمة يتجلى فيها أنها خرجت من قلب موصول بالله واثق فيه. طامع فى كرمه. وأن يوسف سيعود. ثم يوجه أبناءه إلى أن يذهبوا ويطلبوا أخبار يوسف وأخيه ولا يقطعوا آمالهم من رحمة الله فالكافرون هم الذين تنقطع آمالهم من رحمة الله لأنهم لا يثقون فيه ولا فى وجوده.

عودة أبناء يعقوب إلى مصر

قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

انطلق الأبناء نحو مصر كما أمرهم أبوهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ ﴾ فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه ﴿ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ يريدون يوسف وهم لا يعرفونه بعد فالمراد به العزيز. ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ أى أصابنا وأهلنا «الضر» المراد به القحط والفقر وكثرة العيال وقلة الطعام ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ الإزجاء معناه الدفع والسوق والمعنى ببضاعة مردودة لأمرين: -

١- إما لرداءتها ٢- وإما لنقصانها

وهذه البضاعة هى دراهم قليلة. وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل الصوف والسمن والأقط وقيل النعال والأدم[1].

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ قولهم ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى أعطنا ما كنت تعطيه لنا تاماً بالثمن الجيد فإنا نريد أن تقيم لنا الناقص مقام الزائد. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾ برد أخينا.

و ذهب سعيد بن جبير والسدى[2] إلى هذا المعنى: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوَّز فيها.

لطيفتان:

الأولى: (سئل سفيان بن عيينة هل حُرِّمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ ؟ فقال: ألم تسمع قوله «فأوف لنا الكيل وتصدق علينا»)[3].

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦١.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص٣٣١.

(٣) المرجع السابق ص٣٣١، ٣٣٢.

الثانية: (عن عثمان بن الأسود سمعت مجاهداً وسئل هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق على. فقال: نعم. إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب)[1].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ هذه جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب أي يثيبهم بالجنة وإذا جازى الله فإنه كريم جواد.

يوسف يكشف عن نفسه ليعرفه إخوته

قال تعالى:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

سبق هذه الآيات أنهم قالوا ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾.

---

(١) المرجع السابق ص٣٣٢.

فَرَقَّ عليهم وأدركته الرحمة بهم ورفع الحجاب بينه وبينهم (إنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم يقال إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة) [1].

المباحث العربية

قوله ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ صدر يوسف كلامه مع إخوته بالاستفهام لتعظيم ما فعلوه فى حقه من ضرب وقذف فى غيابة الجب فيكون المعنى ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه وذلك كما تقول للمذنب هل تدرى ما فعلت فى حق فلان وهل تعرف من خالفت.

﴿ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ إذ ظرف بمعنى الوقت وقت أنكم جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف من الولاية والسلطة.

- لقد قال يوسف ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ الذى فعلوه بيوسف معلوم ظاهر، فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يضمه إليه؟

الجواب على ذلك: إنهم نغصوا عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف وفرقوا بينه وبين أخيه وقيل «لما اتهم بأخذ الصواع قالوا ما رأينا منكم يا بنى راحيل خيراً»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص٣٣٢.

(٢) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٧٩.

﴿ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ قالوا هذا القول بعد أن بدت لهم شمائله وخصاله الحميدة. والمراد بالاستفهام التقرير. وأنت مبتدأ خبره يوسف والجملة فى محل رفع خبر «إن» فى ﴿ أَإِنَّكَ ﴾ واللام لام الابتداء ويجوز أن يكون الضمير «أنت» ضمير فصل وليس توكيداً لأن هذه اللام لا تدخل على التوكيد.

﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ﴿ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ ولم يقل «هو أنا» فلقد صرح بالاسم وصرح بأخيه ﴿ وَهَـذَا أَخِي ﴾ تعظيماً لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من الظفر والنصر وذكر كلمة أخى مع أنه كان معروفاً لأن مقصوده أن يقول وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت ثم أنعم الله علينا.

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ ﴾ أى من يتق المعاصى ويصبر على البلاء وإيذاء الناس فإن الله لا يضيع أجرهم. قوله ﴿ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وضع الاسم الظاهر «المحسنين» مكان الضمير. أى أظهر فى موضع الإضمار لاشتمال الاسم الظاهر على المتقين والصابرين فمعنى «الإحسان» واحد من تفسيرين:

١- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما ورد فى حديث جبريل «ما الإحسان؟» ومن كانت هذه عبادته كان تقياً صابراً.
٢- التفسير الثانى: أن يحسن المرء أقواله وأفعاله. فإذا فعل ذلك كان تقياً صابراً.

قوله ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ اعترفوا بخطئهم وأقسموا قبله على أن الله فضَّله عليهم ﴿ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا ﴾ لم يذكروا جهة الإيثار ولا نوعه ليفيد العموم فيشمل العلم والحلم والعقل والفضل والحُسْن والملك.

و ذهب بعض العلماء[1] إلى أن إخوته ليسوا أنبياء لأنهم لو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ﴿ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ ولا سيما وأن جميع مناصب الدنيا كالعدم بالنسبة لمنصب النبوة.

و يمكن دريء هذا بما يأتي:-

أن الله آثره عليهم في الملك وأحوال الدنيا وإن اشتركوا جميعاً في النبوة.

قوله ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ الخاطئ اسم فاعل من الفعل الثلاثي خطئ وهو الذي يفعل الخطأ عمداً والمخطئ اسم فاعل من الفعل الرباعي أخطأ وهو من يفعل الشئ خطأ عن غير عمد. واعتذارهم عن ثلاثة أمور: إلقائه في الجب. وبيعه. وتبعيده عن البيت والأب (وقال أبو على الجبائي: إنهم لم يعتذروا إليه من ذلك لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنباً فلا يعتذر منه وإنما اعتذروا من حيث إنهم أخطأوا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم ما فعلوه ليعلم أنه حيّ وأن الذئب لم يأكله)[2].

و لقد ضعف الفخر الرازي اتجاه الجبائي فقال: (وهذا الكلام ضعيف من وجوه: الأول: أنا بينا أنه لايجوز أن يقال إنهم أقدموا على تلك الأعمال في زمن الصبا لأنه من البعيد في مثل يعقوب أن يبعث جمعاً من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلاً عاقلاً يمنعهم عما لا ينبغي ويحملهم على ما ينبغي. والثاني: هب أن الأمر على ما ذكره الجبَّائي إلا أنا نقول غاية ما في الباب أنه

(١) تفسير الفخر الرازي جـ ٥ ص١٦٣.

(٢) المرجع السابق.

لا يجب عليهم الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال إنه يحسن الاعتذار عنه والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى فعلمنا أن الإنسان أيضاً قد يتوب عندما لا تكون التوبة واجبة عليه. واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) [1].

قوله ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ التثريب: التعيير والتوبيخ والمعنى: لا تعيير ولا لوم ولا توبيخ (وقال الزجاج: المعنى: لا إفساد لما بيني وبينكم من الحرمة وحق الأخوَّة ولكم عندى الصلح والعفو وأصل التثريب الإفساد وهى لغة أهل الحجاز. وقال ابن الأنبارى معناه قد انقطع عنكم توبيخى عند اعترافكم بالذنب) [2].

قوله تعالى ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ هذا طلب من يوسف ودعاء منه طالباً المغفرة قوله ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أى والله ﷻ يرحم عباده رحمة لا يتراحمون بها فيما بينهم ولا يتصف به سواه فهو الذى يجازى المحسن على إحسانه ويغفر للمسئ إن تاب. بل يبدِّل سيئاته حسنات بعد توبته.

لطائف:

الأولى: (روى أن الرسول ﷺ أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح وقال لقريش ما ترونى فاعلاً بكم، فقالوا نظن خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال: أقول ما قال أخى يوسف ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾) [3].

---

(١) المرجع السابق

(٢) فتح القدير جـ٣ ص٦٤.

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٣.

الثانية: (روى أن أبا سفيان لما جاء ليسلم قال له العباس إذا أتيت رسول الله ﷺ فاتل عليه ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ففعل فقال رسول الله ﷺ: غفر الله لك ولمن علمك) [1].

الثالثة: (روى إن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه إنك تحضرنا فى مائدتك بكرة وعشياً، ونحن نستحى منك لما صدر منا من الإساءة إليك فقال يوسف عليه السلام إن أهل مصر وإن ملكتُ فيهم فإنهم ينظرونى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلّغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ ولقد شُرِّفْت الآن بإتيانكم وعظمتُ فى العيون لمّا جئتم وعلم الناس أنكم إخوتى وأنى من حفدة إبراهيم عليه السلام) [2].

معانى الآيات

قال يوسف سائلاً إخوته ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ فيسمعون رنين صوت لعلهم يتذكرون شيئاً من نبرته أو لهجته ولاحت لهم ملامح وجه بقيت فيه بعض معالم الطفولة رغم أنهم يرونه فى سمت عزيز مصر فدعاهم ذلك إلى سؤاله ﴿ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ففجّر مفاجأة عجيبة ﴿ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ ثم يوجز ما فعله الإخوة به وبأخيه ويذكّرهم ثم يذكر منّة الله عليه وعلى أخيه معللاً هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا به ويجللهم الخزى والخجل وهم

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

يواجهونه محسناً إليهم وقد أساءوا إليه. ثم اعترفوا بخطئهم وأقروا بذنبهم واعترفوا بأن الله آثره عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان. وأنهى يوسف الموقف المخجل بما يفعله الكريم ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وانتهى الموقف بالصفح ودون تأنيب وانقطع الماضي بجذوره فلا مجال لذكره بعد ذلك.

الرجوع إلى يعقوب بقميص يوسف

قال تعالى:

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

المباحث العربية

لما عرف يوسف إخوته وعرفوه وتحاوروا سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه من الحزن عليك فأعطاهم قميصه فقال:

﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا ﴾ هذا القميص هو قميص إبراهيم عليه السلام (فإن نمروذ الجبار لما ألقى إبراهيم فى النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق وكساه إسحاق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبة من فضة وعلقه فى عنقه فألقى فى الجب والقميص فى عنقه فذلك قوله ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا ﴾)[1].

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لقد حمل يهوذا القميص ليبرأ أبوه مما أصاب عينه لأنه الذى حمل القميص الملطخ بالدم إلى أبيه وهو غير القميص الذى ورثه إسحاق عن إبراهيم فهو المحمول أخيراً لإلقائه على وجه يعقوب فأراد أن يكون سبباً فى سرور أبيه كما كان سبباً فى حزنه.

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ الفعل مجزوم بحذف حرف العلة فهو جواب الأمر ألقوه فيرتد إليه بصره.

السر فى ارتداد يعقوب بصيراً:

للعلماء فى تحقيق ذلك اتجاهان:

١- إنما عرف يوسف أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد بصره عن طريق الوحى ولولا الوحى لما عرف ذلك لأن العقل لا يدل عليه.

٢- لعل يوسف عرف أنَّ أباه عَمِى من كثرة البكاء وضاق قلبه وضعف بصره من الحزن فإذا ألقى عليه القميص فإنه ينشرح صدره ويقع فى قلبه الفرح الشديد وذلك يقوى روحه فيزول الضعف فيقوى بصره.

---

(١) تفسير الرازى جـ ٥ ص١٦٤.

و الاتجاه الأول هو المقبول لأنهما أى يعقوب ويوسف من الأنبياء فهم يتحركون بوحى من الله.

قوله تعالى ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وهم بنو يعقوب وكانوا نحواً من سبعين إنساناً قاله الكلبى وقال مسروق كانوا ثلاثة وتسعين بين رجل وامرأة.

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أى خرجت من مصر متجهة إلى أرض كنعان مقر آل يعقوب. قال يعقوب لمن بقى عنده من بنيه وأهله ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ فلقد هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف فأخبر من حوله بأنه شم ريح يوسف واختلف العلماء فى المسافة بين القميص والرائحة وبين يعقوب، قال بعضهم مسيرة ثمانية أيام. وقال بعضهم مسيرة عشرة أيام. وقال بعضهم مسيرة ثمانين فرسخاً.

قوله ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ أنكم تنسبونى إلى الفند وهو الخرف والهرم والكذب والسَّفه.

واختلف العلماء فى كيفية وصول تلك الرائحة إلى يعقوب وهناك رأى تستريح إليه النفس دون سواه (قال مجاهد هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص فمن ثم قال إنى لأجد ريح يوسف)[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٤.

قوله ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴾ قالوا لوالدهم هذه الكلمة الغليظة قال ابن عباس: إنك لفى خطئك القديم. وهذا الضلال الذى يراه أبناؤه وأهله هو أمله فى عودة يوسف وهو لا ينساه ويوسف عند الأبناء والأهل قد هلك ومات. والضلال هو الذهاب عن طريق الصواب. والذى دفع الأولاد إلى القسم بهذا القول بعد العهد بأحداث يوسف فكانت المدة أربعين سنة وقيل ثمانين وقيل ثمانى عشرة سنة.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ «أنْ» زائدة للتوكيد «فلما جاء البشير» فهى تزاد بعد لَّما كما فى هذه السورة، وكما فى سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾.

و البشير هو يهودا كما مر، فقد سبق العير وفارقها بعد خروجهم من العريش والبشير هو الذى يأتى بالخبر السار. ولقد أحب يهودا أنْ يفرح أباه كما أحزنه سابقاً.

﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ أى طرحه على وجه أبيه. ﴿ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ أى رجع بصيراً. وهى منصوبة على الحال. ويجوز أن يكون النصب على أنه خبر ارتدَّ على معنى «صار» وهى من أخوات «كان». وبصيراً صيغة مبالغة والتعبير بها يوحى بأن بصر يعقوب عليه السلام قد ضعف ولم يذهب كله.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ «ألم» تفيد معنيين: –

الأول: أنها تفيد التنبيه التذكير.

الثاني: أنها تفيد التعجيب من أمر فيه غرابة ودهشة.

وهى هنا تفيد المعنى الأول فهو يذكرهم بقوله ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وعدم موته. وعرف ذلك من أمرين:

١- الرؤيا التى قصها يوسف على أبيه وهى رؤية أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رآهم له ساجدين.

٢- أنه علم ذلك عن طريق الوحى من الله.

﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ قالوا ذلك اعتذاراً عما وقع منهم. ﴿ اسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ السين والتاء للطلب أى اطلب لنا من ربنا غفران ذنوبنا. ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ آثمين.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ لقد أخَّر يعقوب الدعوة بالاستغفار حتى يختار الأوقات التى يتجلى الله فيها على عباده بالفضل والمغفرة فأخَّر الاستغفار؛ إما إلى وقت السحر، وإما إلى ليلة الجمعة ويومها. وجملة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ مستأنفة. ولقد اشتملت على أساليب بلاغية:

١- التوكيد: وهو بإنَّ واسمية الجملة.

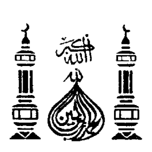
٢- أسلوب القصر بتعريف الطرفين وضميرالفصل.

٣- صيغتا المبالغة: الغفور على زنة فعول. والرحيم على زنة فعيل.

والغفور: كثير ستر الذنوب للعباد والمراد به محوها. والرحيم: رقة فى القلب تقتضى الإحسان. والمراد بها فى حق الله تعالى: الإحسان إلى عباده.

قال يوسف لإخوته ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ اتجهوا قِبَل الشام ولما خرجت قافلتهم من مصر وتركتها شم يعقوب رائحة القميص من هذا المدى البعيد أو كانت عند مفارق أرض كنعان. وشم منها يعقوب رائحة يوسف فأباح بذلك إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تقولوا شيخ خرف. ولكن المحيطين به لم يكن لهم ما له عند ربه فلم يشعروا بما شعر به أبوهم فقالوا حالفين له تالله إنك لفى خطئك القديم وهو رجاؤك فى لقائه على بُعد العهد بينكما.

و تقع المفاجأة البعيدة وتتبعها مفاجأة أخرى ﴿ فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ فالمفاجأة البعيدة مجىء البشير بالقميص وهذا دليل قُرْب لقيا يوسف. وتبعتها مفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه. ويفصح يعقوب بحقيقة ما يعلمه من ربه والتى أخبرهم بها من قبل فلم يفهموه. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ فاعترف الأبناء بخطئهم وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم. ونلمح فى رد يعقوب عليهم أنه لم يصفُ بعد فلقد فجعوه وجرحوا فؤاده فى محبوبه يوسف. ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فعبارته بقوله ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ ﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب مكلوم مفجوع وإن كان وعدهم بالاستغفار لهم.



انتقال نبى الله يعقوب و أبنائه إلى مصر

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

استقبل يوسف أباه وأهله (بمائتى راحلة وأربعة آلاف من الجند والعظماء وأهله بأجمعهم تلقوا يعقوب عيه السلام وهو يمشي يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يا يهودا هذا فرعون مصر قال: لا. هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك، فقال يعقوب عليه السلام: السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشيوخ)[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٥.

قوله ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ الفاء للاستئناف. ودخلوا على يوسف فى مضربه فى خيمته التى نصبت له خارج المدينة ليستقبل والده وأهله ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أى قربهما وضمهما إليه والمراد بأبويه أبوه واختلف فى أمه فقيل أبوه وأمه راحيل. وقيل إن أمه ماتت فى نفاسها ببنيامين والمراد بها خالته وكانت تسمى «ليا». وقيل إن «ليا» ماتت قبل أم يوسف وكان لهما أخت ثالثة تزوجها يعقوب وهى التى دخلت معه مصر. وقيل إن الله أحيا راحيل أم يوسف وهى التى دخلت معه مصر[1] ولا يخفى أن الخالة أم.

﴿ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ هذا هو الدخول الثانى وهو الأمر بدخول المدينة وأما الدخول الأول فكان دخول الخيمة والمحل الذى ضرب ليوسف.

قوله تعالى ﴿ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ أى آمنين من المكاره (والمشيئة متعلقة بالدخول مع الأمن لأن المقصود اتصافهم بالأمن فى دخولهم ونظيره قولك للغازى ارجع سالماً غانماً إن شاء الله، فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة مكيفاً بهما والتقدير «ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين ثم حذف جزاء الشرط «إنْ» لدلالة الكلام عليه ثم اعترض بجملة الشرط والجزاء المحذوف بين الحال آمنين وصاحب الحال واو الجماعة فى « ادخلوا»)[2].

قوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ الرفع هو الانتقال إلى العلو، فلقد نقلهما وأجلسهما بجانبه ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ الخرور بالسجود الظاهر من النص

---

(١) أنظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٨٢

(٢) المرجع السابق بتصريف.

أنـه السـجود الحقيقـى وهـو وضـع الجبهـة علـى الأرض لأن اللفظـين ﴿خَرُّواْ﴾ و﴿سُجَّدًا﴾ ينصرفان معًا إلى الحقيقة. وقيل إن السجود كان انحنـاءة علـى عـادة تحية الملوك. والذى تميل إليه النفس ويهتف به النص أنه السجود الحقيقى.

- ويترتب على الذهاب إلى الحقيقة سؤال وهو:

كيفَ أجاز يوسف لنفسه أن يسجد له أبوه وهو أكبر منه سناً وأعلى منه منصباً فى مقام النبوة فضلاً عن كونه له أباً وأن هذا السجود لا يكون إلا لله؟

و الجواب على ذلك:

أن السجود كان فى الحقيقة لله تعالى وليس ليوسف وهـو سـجود شـكر لله على أن جمعه بابنه الـذى غـاب عنـه سـنين طويلـة. فكـان السـجود لله ويوسـف كالقبلة كما كان فى سجود الملائكة لآدم. ويؤيد هذا قوله ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ على العرش وخروا له سجداً.. فظاهر هذا النص يدل على أنهم لما صعدوا واستووا على السرير خروا سجداً، ولو كان السجود ليوسف لكـان قبـل الصعود إلى السرير. وسجودهم على السرير كان أبلغ فى التواضع.

و ينبثق عن هذا سؤال وهو: يدفع القول بالسجود الحقيقى قوله ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ وقوله ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ فالسجود ليوسف لأن الضـمير يرجـع إلى أقرب المذكورات وهو يوسف؟

والجواب من وجوه:

١- يحتمل أن يكون المعنى وخروا لله سجداً لأجل يوسف واجتماعهم به.

٢- يحتمل أن يكون يعقوب قد سجد هذه السجدة بوحى من الله لحكمة خفيت عنا وسجد معه أبناؤه وفعلوا فعل أبيهم فكان سجوده شكراً لله وكان يوسف كالقبلة. وسجودهم تواضعاً لأخيهم الذى ظلموه ويفوقهم فى مقام النبوة.

٣- أن هذا السجود كان جائزاً فى ملتهم ثم نسخ فى ملتنا.

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ التاء التى أضيفت إلى أب عوض عن ياء المتكلم. ﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ أى هذا تفسير رؤياى ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ جعلها الله «حقاً» صدقاً حيث وجدت وتحققت فى الواقع.

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ أى أنعم علىَّ. وعدَّى أحسن بالباء بدل «إلى» لتضمنه معنى «أنزل». ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «وقت» وقد أنعم علىَّ وقت أخرجنى من السجن فالله هو الذى أطلقه من السجن بقدرته التى تتحير قبلها العقول.

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ هذا الكلام معطوف على ﴿ أَخْرَجَنِي ﴾ والمعنى وقد أنعم إلى وقت إخراجى من السجن ووقت مجيئكم من البادية من بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ اللطيف هو الرفيق المحسن وهو هنا بمعنى «مدبر» ولذلك عداه باللام فى قوله ﴿ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ أى لما يريد. ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ هذه الجملة اشتملت على أساليب بلاغية وهى:

١- التوكيد بإن واسمية الجملة.
٢- أسلوب القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل أى هو العليم الحكيم دون سواه.
٣- صيغتا مبالغة فى العليم والحكيم وهما على وزن واحد فى العليم والحكيم.

و«العليم» كثير العلم بخلقه. كثير الحكمة فى أموره وصنعه. والحكمة: هى إصابة الحق فى القول والفعل.

لطيفتان:

الأولى: المدة التى كانت بين الرؤيا وبين وقوعها اختلف العلماء فيها (قيل ثمانون سنة. وقيل سبعون. وقيل أربعون. وهو قول الأكثرين ولذلك يقولون إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة وقيل ثمانى عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وبقى فى العبودية والسجن ثمانين سنة ثم وصل إلى أبيه وأقاربه وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة. والله أعلم) [1].

الثانية: ذكر يوسف مصيبة السجن ولم يذكر مصيبة إلقائه فى الجب لما يأتى:

١- إما لطول مدة السجن ولصاحبته فى السجن الأوباش والأشرار والمجرمين. وأعداء الدين. بخلاف مدة الجب فكانت قصيرة وآنسه جبريل والملائكة.
٢- وإما لأنه كان يتمتع بالأدب الجم والذوق حتى لا يجرح شعور إخوته بعد أن قال لهم ﴿ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾.
٣- و إما لأن نعمة الله عليه فى إخراجه من السجن كانت سبباً لوصوله إلى الملك.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٥ ص١٦٧.

معانى الآيات

يمضى السياق فيسوق المشهد النهائى المؤثر. فياله من مشهد بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام وبعد اليأس والقنوط والألم والضيق وبعد الامتحان والابتلاء وبعد الشوق المضنى والحزن الكامد والظمأ الشديد دخل الوالد والأهل على يوسف خارج المدينة فضم أبويه إليه وقال لأهله وعشيرته ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من كل مكروه. ورفع أبويه على سريره الذى يجلس عليه وخروا له ساجدين فقال يوسف يا أبت هذا تأويل رؤياى التى رأيتها فى طفولتى كانت مناماً فصارت واقعاً. ثم يذكر نعمة الله عليه وقد أطلقه من السجن وجمعه الله بأهله وأتى بهم من البادية من بعد أن أفسد الشيطان بينه وبين إخوته ويذكر لطف الله فى تدبيره لتحقيق مشيئته لأنه العليم بكل شئ الحكيم فى أموره.

دعاء يوسف واعترافه بفضل الله عليه

قال تعالى:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

مناسبة الآية بما قبلها:

قبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير وهو مشهد اللقاء بعد الفراق الذى طال أمده ينزع يوسف عليه السلام نفسه من اللقاء والعناق والفرحة

والابتهاج والجاه والسلطان والرغد والأمان ليتجه إلى الله فى دعاء يعترف فيه بالفضل والمنّ فقال ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾.

المباحث العربية

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ «رب» منادى حذف منه حرف النداء وهو مضاف إلى ياء المتكلم وحذفت الياء وكسرت الباء المشددة للدلالة على الياء المحذوفة وهذه لغة فى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم. ومن اللغات فيه إثبات الياء الساكنة كما فى قوله تعالى ﴿يَا عِبَادِي لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [1] ومن اللغات حذف الياء الساكنة وإبقاء الكسرة دليلاً عليها كما فى قول يوسف ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [2]. ومن اللغات فى المنادى المضاف إلى ياء المتكلم: إثبات الياء وفتحها كما فى قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ [3].

ومن اللغات فيه: قلب الكسرة التى قبل الياء المفتوحة فتحة فتنقلب الياء ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها قال الله تعالى ﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[4]. وقال تعالى ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ﴾[5] أصلهما: يا حسرتى ويا أسفى.

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٨.
(٢) سورة الزمر آية ١٦.
(٣) سورة الزمر آية ٥٣.
(٤) سورة الزمر آية ٥٦.
(٥) سورة يوسف آية ٨٤.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ يا رب قد أعطيتني ﴿ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ من تبعيضية أي بعض الملك وهو ملك مصر إذ لم يملك جميع الأقطار لأنه لم يملكها إلا أربعة: مؤمنان: ذو القرنين وسليمان بن داود ، وكافران: النمروذ بن كنعان وهو الذى حاج إبراهيم فى ربه. وبختنصَّر. و قيل بختنصر وشداد بن عاد [1]. وقيل إن «من» زائدة . وقيل هى لبيان الجنس .

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ أى وعلمتنى من تعبير الرؤيا وتأويلها ، وسمى الرؤيا أحاديث لما يقع فيها من الأحاديث.

﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى منشئهما من العدم ابتداء وعلى غير مثال سابق. (عن ابن عباس قال: كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أنا بدأتها فقال ابن عباس أيضاً ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بديع السموات والأرض) [2].

﴿ أَنتَ وَلِيِّي ﴾ أنت متولى مصالحى وآخذ بناصيتى.

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ لقد مر آنفاً أن هذا الدعاء كله كان بعد أن اجتمع بأبيه وإخوته ويحتمل أنه دعا بهذا الدعاء عند احتضاره. ويحتمل أنه دعا هذا الدعاء وسأل الوفاة على الإسلام عندما تحين وفاته.

ولا يعترض على الاتجاه الأول وهو أنه دعا بهذا الدعاء عندما تمت له النعم. ولقد نهى الرسول ﷺ عن طلب الموت (لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به

---

(١) انظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص ٤٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص٥١٩

إما محسناً فيزداد وإما مسيئاً فلعله يستعتب ولكن ليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى) [1].

قد يكون طلب الموت كان سائغاً فى ملتهم. وقوله ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من آبائى. واختلف فى وفاته فقيل مات بعد أسبوع من هذا الدعاء، وقيل عاش مائة وعشرين[2].

موت يعقوب عليه السلام

فلما حضر يعقوب الموت أوصى ابنه يوسف عليهما السلام أن يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر أبيه إسحاق فى الأرض المقدسة بالشام فلما مات يعقوب بمصر فعل ما أمره به أبوه فحمل جسده فى تابوت من ساج حتى قدم به الشام فوافق ذلك موت عيصو أخى يعقوب وكانا قد ولدا فى بطن واحد وفى وقت واحد فدفنا فى قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين فلما دفن يوسف أباه رجع إلى مصر[3].

موت يوسف عليه السلام

لما مات يوسف اختلف المصريون فى المكان الذى يدفن فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن فى محلتهم من أجل البركة حتى هموا أن يقتتلوا ثم اصطلحوا على أن يدفنوه فى أعلى النيل أى فى أقصاه من الجنوب من جهة الصعيد. لأجل أن

(١) متفق عليه.

(٢) أنظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٨٥.

(٣) أنظر المرجع السابق.

يجرى الماء ويمر عليه ويتفرق عنه بعد ذلك إلى جميع البلاد وتعم بركته البلاد كلها فجعلوه فى صندوق من المرمر وهو نوع من الرخام فدفنوه فى الجانب الأيمن من النيل فأخصب وأجدب الجانب الآخر فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب وأجدب الجانب الأيمن فدفنوه وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقى أربعمائة سنة فلما أمر الله موسى بالخروج من مصر أمره بأخذ يوسف معه ودفنه فى الأرض المقدسة بقرب آبائه فلم يهتد إلى مكانه فدلته عليه عجوز من ولد يعقوب وشرطت عليه أن تكون معه فى الجنة فضمن لها ذلك وشرطت عليه أيضاً أن يدعو لها بأن ترجع شابة كلما هرمت فدعا لها فكانت كلما وصلت فى السن خمسين سنة رجعت بنت ثلاثين وعاشت ألفًا وستمائة سنة فحمله موسى فدفنه فى الأرض المقدسة فهو هناك الآن[1]. ولقد أنجب من امرأة العزيز ولدين وبنتاً: افراثيم — وميشا — ورحمة.

معنى الآيات

يا رب أعطيتنى من الملك سلطاناً وجاهاً ومالاً فذلك نعمة علىَّ أشكرك عليها. ومن نعمك علىَّ علمتنى إدراك تأويل الرؤيا وتعبيرها فذلك من نعمك علىَّ فإنى أذكرها واعدِّدها يا فاطر السموات والأرض بكلمتك وبأمرك وتملكهما وتدبر شئونهما. وأنت ناصرى فى الدنيا والآخرة فنعم الناصر والمعين. فأعطيتنى هذه النعم دون سؤال وإنى لا أسألك الآن سلطاناً ولا مالاً ولا جاهاً ولكن أسألك ما هو أبقى وأغنى توفنى مسلماً وألحقنى بآبائى وأجدادى الصالحين.

---

(١) المرجع السابق.

دليل على صدق الرسول وإعراض قومه عنه

قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المباحث العربية

بعد أن ساق الحق تبارك وتعالى قصة يوسف كاملة ولم تكرر فى القرآن لأمرين:

١- لأنها نزلت مستوفية الجوانب.

٢- أو لأنها تشتمل على ما يثير الغريزة لما فيها من مراودة المرأة للرجل. فأتت فى موقع واحد.

فبعد أن ساق الله هذه القصة عقب عليها بقوله ذلك أى ما قصه الله تعالى من الحديث عن يوسف وإخوته إخبار بالغيب فلم يكن يعرفه الرسول ﷺ ولا قومه وهذا دليل على صدق ما جاء به وأنه من عند الله تعالى.

أنواع الغيب:

الغيب هو: «مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين، يقال غاب عنى»[1]. فالغيب هو ما غاب عنك، وهو أنواع:

أولاً: غيب الماضى: وهو ما لم يطلع عليه الإنسان فهى الأحداث التى سبقت ميلاد الإنسان ولم يشاهدها ولم يعايشها. وهى فى القرآن الأحداث القرآنية التى سبقت نزول القرآن ولم يشاهدها الرسول ﷺ من الحديث عن الملائكة وخلق السموات والأرض والأمم والأنبياء.

ثانياً: غيب الحاضر: وهو إخبار الله رسوله عن أحداث وقعت بعيداً عنه ولم تكن بحضرته فأخبره الله بها. كإخباره عن المنافقين وأقوالهم وما يدور بخواطرهم. وغير ذلك.

ثالثاً: غيب المستقبل: وهو إخبار الله تعالى عن أحداث وقعت مستقبلاً وعند إخبار القرآن لم تكن وقعت. كإخبار الله عن الروم بأنهم ينتصرون بعد هزيمتهم من الفرس. وكإخبار القرآن عن دخول المسلمين مكة فى عمرة القضاء. وبأن الله سيمكن لهم دينهم وينتشر فى الأرض وقد تحقق ذلك.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٣٦٦.

قوله ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ اسم الإشارة مبتدأ و﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ جار ومجرور خبر المبتدأ. والأنباء جمع نبأ وهو الخبر. ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبر ثانى. أى نوحيه إليك عن طريق رسولنا جبريل عليه السلام وهو الحديث عن يوسف وإخوته والحديث عن الأمم والأنبياء السابقين.

أنواع الوحى:

روى (عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث ابن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشَدُّهُ علىَّ فيفصم[1] عنى وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول. قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنَّ جبينه ليتفصَّد عرقاً. وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أوَّلُ ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه وهو التعَبُّدُ الليالى ذواتِ العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء)[2].

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿ مَا ﴾ نافية و﴿لَدَيْهِمْ﴾ أى عندهم ﴿ إِذْ ﴾ ظرف بمعنى وقت ﴿ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ ﴾ أى عزموا

---

(١) فيفصم عنى : ينقطع عنى.

(٢) رواه البخارى.

امرهم فى كيده وهو إلقاؤه فى البئر. ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ جملة فى نصب حال. والمعنى أى يحتالون فى إهلاكه.

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا تسلية للرسول ﷺ عن إعراض قومه واليهود فلقد سألوه عن قصة يوسف فأخبرهم بها مشابهة فى أغلب فصولها ما جاء فى التوراة ومع ذلك لم يؤمنوا فحزن فأنزل الله ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ والمراد بالناس أهل مكة فأل للعهد. أو أنها للجنس فتكون للعموم. ومؤمنين خبر والباء حرف جر مزيد للتوكيد. أى مصدقين برسالتك.

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . ﴿مَا﴾ نافية ﴿تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى تسأل قومك ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى على القرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من حرف جر مزيد للتوكيد. و﴿ أَجْرٍ ﴾ مفعول به منصوب وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهروها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد للتوكيد.

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿ إِنْ ﴾ بمعنى ما النافية ﴿ هُوَ ﴾ أى القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ أى عظة للعالمين. وهذا أسلوب قصر ما القرآن إلا عظة للعالمين. وهو أسلوب قصر بالنفى والاستثناء.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾. ﴿كَأَيِّن ﴾ بمعنى «كم» الخبرية التكثيرية و﴿ مِّن آيَةٍ ﴾ تمييزها كما فى قوله تعالى ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ [١]، وكم من آية دالة على وحدانية الله وقدرته وعلمه فى السموات والأرض يمر عليها أهل مكة وهم عنها منصرفون لا يتفكرون

---

(١) سورة الأعراف آية ٤.

فيها ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ وما يؤمن أكثرهم بوحدانية الله إلا وهم مشركون مع الله آلهة ليقربوهم إلى الله زلفى.

﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى وهى داخلة على محذوف ما بعد حرف العطف معطوف على هذا المحذوف تقديره «أسكنوا» فأمنوا أى عاشوا فى أمن ﴿غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ ، أى نقمة من الله تطبق عليهم فتغطيهم. والجار والمجرور صفة لغاشية ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أو تأتيهم القيامة فجأة دون إنذار بوقتها وبغتة حال من الساعة على تقدير «مُفاجأة». ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ هذه الجملة فى محل نصب حال أى وهم لا يحسنون بميقاتها.

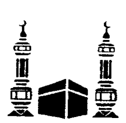
﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي ﴾ قل يا محمد ﴿ هَـذِهِ ﴾ اسم إشارة ﴿ سَبِيلِي ﴾ طريقتى وشريعتى ﴿ أَدْعُو ﴾ إلى دين الله ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ حال والبصيرة الحجة الواضحة. ﴿ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ أنا ومن آمن بى ندعو على بصيرة ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ ﴾ مصدر وهو مفعول مطلق منصوب على المصدرية بفعل محذوف تقديره «أسبح» ومعناه أُنَزِّه اللهَ عما لا يليق بجلاله وجماله وكماله وعن مشابهته بالحوادث. وهو معطوف على جملة ﴿ أَدْعُو ﴾.

﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ وهى فى معناها مؤكدة لمعنى التنزيه. فهو ينفى عن نفسه ما يفعله المشركون من وصف الله بما لا يليق به.

معنى الآيات

انتهت فصول القصة وبدأ التعقيب عليها. ذلك الحديث العذب عن يوسف وعشيرته وهو إخبار بالغيب الماضي وهو يدل على صدق رسالة الرسول ﷺ فهو لم يكن عندهم وقت عزم إخوة يوسف على المكر به والكيد له وإلقائه في الجب. ويبدأ مع هذا التعقيب اللفتات المتنوعة واللمسات الحانية والجولات الموحية في صفحة الكون المترامى الأطراف وفى أغوار النفس آثار الغابرين. ثم يسلى رسوله «وما أكثر الناس ولو حرصت على إيمانهم بمؤمنين». فحرص الرسول ﷺ على إيمان قومه لن يسوقهم إلى الإيمان. وأنت لم تسألهم أجراً على هذا الدين. فما هو إلا عظة للعالمين. وكثير من الآيات المبثوثة فى السموات والأرض دالة على وحدانية الله وقدرته وعلمه يمر عليها المشركون الكافرون وهم عنها معرضون. عازفون عنها لا يتأملونها وهى ناطقة سواء كانت فى هدأة الليل أو فى زحمة النهار. وحتى الذين يؤمنون من هؤلاء المشركين يخلطون الإيمان بالشرك. أفأمنوا أن تأتيهم نقمة من عذاب الله أو تأتيهم القيامة فجأة وهم لا يحسون. قل هذه شريعتى وطريقتى وهى واحدة مستقيمة لا شبهة فيها ولا شك ولا اعوجاج أدعوا إلى دين الله أنا ومَن آمن بى ونحن على حجة واضحة لا شك فيها ولا غبش. وأنزه الله عما لا يليق به وما أنا من المشركين الذين لا ينزهونه تعالى .



الرسل لا توهنهم المسئولية

قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ
إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
(١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ
حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾

المباحث العربية

لما تحدث الله عن آياته المبثوثة فى السماء وفى الأرض ويمر عليها المشركون معرضين عنها واطمأنوا فى ظل الشرك فهم ليسوا فى أمن بأن تأتيهم نقمة من عذاب الله أو تفجأهم القيامة بغتة. قوم حالهم هكذا فإنهم لا يقبلون دين الله فقال الله لرسوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِم ﴾ وفى هذا لفت للانتباه بأن الرسل رجال يتحملون أذى أقوامهم فلتصبر مثلهم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ هذا أسلوب قصر بالنفى والاستثناء قصر إرسال الرسل على الرجال دون النساء.

﴿ نُوحِي إِلَيْهِم ﴾ قرئ نوحى بالبناء للفاعل بضم النون وكسر الحاء، وقرئ بضم الياء وفتح الحاء بالبناء للمفعول. ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أى الأمصار وهى المدن الكبيرة والصغيرة فتشمل القرية والمدينة بخلاف أهل البادية فهم أهل الوبر لجهلهم وجفائهم فاختار الأنبياء من القرى: ليكون أرق حاشية وألين عريكة من أهل البوادى وغلظتهم.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى داخلة على محذوف ما بعد الفاء معطوف عليه والتقدير: أعجزوا فلم يسيروا وضمير الرفع فى يسيروا يعود على أهل مكة ويفهم هذا من السياق.

﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيتأملوا آثار السابقين وهم قوم عاد وثمود وغيرهم. والسؤال فيه إثارة للنفس على رؤية عاقبة هؤلاء الأقوام وهى الهلاك والاستئصال عن آخرهم.

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الدار هى الجنة والآخرة هى الجنة فيلزم إضافة الشئ لنفسه وهذا جائز فى اللغة كقولهم: حق اليقين. فالحق هو اليقين. وعند البيضاوى أن المراد بالدار الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة وعلى هذا ليس فى الكلام إضافة الشئ إلى نفسه. واللام فى دار للتوكيد وهى مبتدأ خبره ﴿ خَيْرٌ ﴾ لهؤلاء المتقين ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى داخلة على محذوف والتقدير أجهلتم فلا تتعقلون الخير من الشر فتؤمنوا.

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ بعض العلماء جعل حتى غاية وقدَّر تلك الغاية من فحوى الكلام وبعضهم قال ليس فى الكلام شئ يكون حتى غاية له. وهذا كلام السمين الحلبى. أما الذين جعلوا غاية فقدروا تقديرات منها هى غاية لمحذوف دلَّ عليه الكلام: لا يغرهم تمادى أيامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى أيس الرسل وهذا اتجاه البيضاوى. وقدر القرطبى: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً ثم لم نعاقب أمتهم بالعذاب حتى إذا استيأس الرسل. وقدر ابن الجوزى: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فدعوا قومهم فكذبوهم وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استيأس الرسل[1]. واستيأس من اليأس وهو القنوط والإحباط وعدم وقوع ما يتمناه الإنسان والسين والتاء للمبالغة والكثرة لأن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى.

﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [2]. أيقن الرسل أنهم كذِّبوا تكذيباً لا إيمان للأقوام بعده. ﴿جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿ فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء ﴾ وهم المؤمنون بهم. فالله ينجى وينقذ من يشاء.

﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ولا يستطيع أحد أن يرد عن الكافرين عذابنا وبنى الفعل للمجهول ليفيد العموم والمراد بالمجرمين الكافرين.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ اللام لام القسم. قال فى أول السورة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وقال فى آخر السورة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ دل على أن هذه القصة من أحسن القصص وإن فيها عبرة لمن اعتبر.

---

(١) أنظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٨٧.

(٢) سورة الكهف آية ٥٣.

و العِبْرة والاعتبار «الحالة التى يتوصَّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد»[1] والمراد منها التأمل والتفكر. ووجه الاعتبار بهذه القصة: أن الذى قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه وإخراجه من السجن وتملكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع قادر على إعزاز سيدنا محمد وإعلاء كلمته[2].

﴿ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ أى فى هذا القصص عبرة لأصحاب العقول وما كان هذا القرآن حديثاً يختلق وسمى القرآن حديثاً لأنه يتحدث به، وهو كلام الله.

﴿ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولكنه يصدق هذا النبى الذى نزل عليه وفيه تفصيل لكل شئ فى حياة البشرية. وهدى لها من الضلالة ورحمة لقوم يؤمنون. فهذه أربعة أهداف للبشرية:

١- مصدِّق لرسوله أو مصدِّق لما تقدم من الرسل ومن الكتب.
٢- فيه تفصيل لكل أمر فى حياة الفرد والجماعة.
التى جاءوا بها.
٣- هدى: هادياً للبشرية ومنقذاً لهم من الضلالة.
٤- رحمة: للناس والجن. وخص المؤمنين دون غيرهم لأنهم المنتفعون به دون غيرهم.

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص٣٢٠.
(٢) الفتوحات الإلهية جـ ٢ ص٤٨٧.

معنى الآيات

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾ فلم يكونوا ملائكة ولا خلقاً آخر، ومن أهل القرى لأن قلوبهم ليسوا كقلوب أهل البادية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ ﴾ أهل مكة فى الأرض فينظروا كيف كانت نهاية الأمم التى كفرت بربها وكذبت رُسُلها. ولدار الآخرة خير للذين اتقوا من هذه الدار التى ليس فيها قرار. أفلا تعقلون فتتدبروا سنن الله فى الغابرين. ثم تصور الآيات بعض ساعات الحرج القاسية فى حياة الرسل قبيل اللحظة الحاسمة التى يتحقق فيها وعد الله وتمضى فيها سنته التى لا تتخلف ولا تحيد.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ إنها ساعات استحكم فيها الكرب وضاق بها الصدر. ثم يأتى الفرج الإلهى لهؤلاء وهو النصر فينقذ الله ما يشاء وليس هناك من يرد عذاب الله عن القوم المجرمين. فيمضى الكفر وأهله وكأن عمرهما على الدنيا كان يوماً أو بعض يوم وفى قصص الأمم الغابرة عبرة لأولى العقول وما كان هذا القرآن حديثاً مختلقاً فهو كلام للعالمين فيه تصديق لرسوله وفيه علاج لكل البشر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

المحتويات